بائــع البليـلــة

قصص قصيرة

محمد نبيل الخربوطلى

اسم الكتاب	بائع البليلة (مجموعة قصصية)
المؤلف	محمد نبيل الخربوطلى
دار النشر	دار سما للنشر والتوزيع
التليفون	٠١١١٩٥٧٨٤٢٧ - ٠١١١٣٠٦٨٤٠٩ - ٠١٢٨٤٣١٨٤٤
الطبعة	الأولى
العنوان	٣١ ش الإمام - جيزة - جمهورية مصر العربية
رقم الإيداع	٩٢٦٩ - ٢٠١٤
الترقيم الدولى	٢ - ١٠ - ٦٣٧٤ - ٩٧٧ - ٩٧٨

محفوظة جميع الحقوق

جميع الحقوق محفوظة للناشر ولا يسمح بنسخ الكتاب أو جزء منه بأي طريقة كانت ورقية أو إلكترونية إلا بإذن كتابى من الناشر

التنسيق والإخراج الفنى: المكتب العربى لخدمة الكتاب والتراث

٠١١١٥٧٤٢٣٠٣ - ٠١٢٢٠٣٧٨١٢٥ - ٠١١٤٥٣٢١٣٨٧

بائـــع البليـلـة

قصص قصيرة

بقلم : صيدلى

محمد نبيل الخربوطلى

عدد القصص (٨)

(١)
بائع البليلة

(يا ولاد.....).. قالها مترنحاً متراجعاً.. وهو عادة ما يقولها ويفعلها بعد أن يرى ذلك الضوء الأحمر الفاقع الذى يتسلل إلى أعماقه من زجاج شباك على بعد ثلاثين متراً..

ولج سريعاً إلى حجرته الضيقة.. اغلق النافذة الجحيمية.. أعدم الضوء.. تسلل إلى ما تحت الغطاء الصوف.. كان يريد الابتعاد عن شبح الشهوة التى تنهش صدره مرتين فى الاسبوع إثر هذا الضوء..

تمنى أن يفقد الذاكرة فى هذين اليومين بل فى هذين الساعتين خاصة من اليومين الطويلين..

أسند رأسه إلى سريره الخشبى.. صدر الصوت المتألم تحت ثقله.. أطلق العنان لأحلامه الوردية المعتادة..

فتخيل أباه يدخل إليه بالبشرى.. بالعمل الذى يحلم به منذ أن تخرج من كلية التجارة.. منذ خمس أعوام..

فتح عيناه فى شغف عساه يرى الأب.. ولكن الظلام عاود إغراقه.. عاود الأحلام.. الآلام.. التساؤل..

ترى.. هل سينجح أبوه فى الأمر الذى فشل فيه خمس مرات من قبل؟

اطلق كلمته الشهيرة.. (طظ).. إنه بالطبع يعرف النتيجة..

كل هذا لم يفت فى أحلامه التى حفظها.. فعاود الأحلام.. إنه الآن يعمل عملاً كبيراً.. لانه يجب ان يكون صاحب مال وفير.. يحب أجمل فتاة فى مصر..

تحبه..

يتزوجها.. ثم تأتى تلك اللحظة التى يتحرق لها كل لحظة.. لحظة أن يكون له مصباحه الأحمر.. فتاته الحسناء.. ولكنه ساعة أن يحبها سيخرج إلى النافذة ليرى هل أحد يرى ضوءه الأحمر أم لا..؟.

إنه لا يكتفى بان يرى اللون الأحمر.. بل يتجه خياله بالتفصيل الممل إلى وصف حبيبته.. يرسمها برموش عينيه كأعظم نحات.. كل ليلة ونهار يُعدل شكل الخد.. لون العين.. لون البشرة.. الطول..

الاستدارة.. ثم تمتد يده فى عالمه الأحمر إلى كل جزء بها.. يتعدى حلمه كل الحواجز.. يغمض عيناه عند احتوائها ثم يستفيق ويتخلص من مادة أحلامه وعندما يفتح النافذة يجد الضوء الأحمر.. مازال يخرج له لسانه.. فتنبعث ثورته من جديد.. يصرخ.. ماذا يفعل لكى ينام.. ينسى كل ما فيه..؟ إنه يستلقى على سريره من جديد.. يحلم بأى شىء فى سلسلة أحلامه.. التى تبدأ أو تنتهى فى ليلة زفافه.. الآن يصل إلى النشوة.. رن جرس التليفون.. تبعثرت أنفاسه.. أزاح الغطاء.. (ربما يكون رد أبي).. تمالك أعصابه.. رفع السماعة التى يعرف طريقها حتى فى الظلام.. اندهش.. كانت أغنية كلثومية.. إنه ليس متعوداً على هذا العبث.. صرخ..

- قلة أدب.. ووقاحة..

الشىء الذى لم يجد له تفسيراً كيف أن يده مازالت تمسك بالسماعة تريد أن تسبر غور ما خلفها.. كان حزنه أن قمة أحلامه قد تاهت.. تمزقت تحت سياط هذا الجرس الفظ وانه يجب عليه عمل طويل كى يستعيد قمة أحلامه مرة أخرى.. إلا أنه اطمئن إذ أن الضوء الأحمر مايزال مشتعلاً.. عرف هذا بالخبرة.. استمع إلى

الصوت المتسلل إليه.. هدأ بعض الشيء.. الا أن حيرته كانت على أشدها.. من هى التى خلف المكالمة؟..

- ألا تتكلمين؟.. لا شك أنك خاجلة من نفسك.. أهانه هذا الاهمال.. لم يجد بد من أن ينتقم رغما عنه..

- طظ..

وضع السماعة فى غيظ..

عليه إذن أن يبدأ من جديد.. ها هى حبيبته تقبل عليه فى ردائها الأسود الذى سيشتريه لها من أرقى حانوت.. إنها تلقى بنفسها بين يديه.. لم يُمهل هذه المرة ليحلم بقبلته فقد مزق الجرس شقا شفتيه.. انفجر..انقض على السماعة فى غيظ.. استدرك موقفه فى آخر لحظة.. إذ ربما يكون الأب المنتظر.. صمت..

جاءه ذلك الصوت الانثوى الذى حطم مقاومته منذ أول لحظة..

- إننى لست خاجلة من نفسى..

لم يفهم ماذا تريد.. بل ماذا يقول.. بعد برهة تمالك أعصابه..

- ماذا قلت؟

- لقد سألتنى.. ألا تتكلمين؟ ثم قلت.. لا شك أنك خاجلة من

نفسك.. ولكنى أقولها لك.. لست خاجلة من نفسى.. هذا كل شىء..

- وهل أدرت القرص سبع مرات لتقولى لى ذلك؟

- لا.

- من أنت.. وماذا تريدين؟.

- إن الشىء الذى لا أطيقه هو تضييع الوقت.. أشكرك إنك قلت هذه الكلمة مبكراً جداً.. ماذا تريدين.. وأنا أقولها.. أريدك.

- ماذا؟..

- هل أرهبتك هذه الكلمة..؟

- لا..

- صوتك.. يقول أنك بالغ.. وأنا امرأة تقول لك أريدك.. هل فهمت أم مازلت دون الخامسة عشرة؟

أخذته المفاجأة.. لم يتصور ما يحدث.. مسح بيده المثلجة جبهته الملتهبة.. بلع لعابه فى صوت مسموع..

ضحكت ضحكة رقيعة أغاظته فقد اكتشف انها تسخر منه..

- أمازلت خائف منى؟

تمالك نفسه أخيراً.. يجب أن يردعها

- أنا لا أخاف أحداً.

ضحكت ضحكتها الرقيعة مرة أخرى..

- أيها الشجاع ماذا يخيفك اذن؟

- إننى.. إننى..

- إنك متردد يا حبوب..

- حبوب(؟!!).

- أقولها لك.. لا تتردد.. لانك لن تندم.. ان كنت تخاف فلا تحضر معك مالاً.. لست سارقة..

- بالطبع لن أحضر معى مالاً..

- إذن لترتدى ملابسك فوراً.

- أين؟.

- انتظرنى بعد نصف ساعة أمام متحف التحرير..

- كيف سأعرفك؟

- سأكون فى عربة بى. أم . دبليو.. سوداء.. مع السلامة يا حبوب..

لم تكتف بهذه الكلمات.. علمت بخبرتها انه قد خضع تماماً..

كان صوته منهكاً عميقاً.. ارسلت قبلة ذات خبرة انتفض لها قلبه حتى اهتزت شفتاه.. اغلقت الخط.. سقطت السماعة دون أن يدرى.. ارتمى فى احضان السرير يقبل بقايا أحلامه.. (نصف ساعة؟.. التحرير؟.. فركة كعب..).. أبعث الضوء..

ارتدى بنطلونه الجينز.. قميصه الأزرق.. الجاكت الجلد السميك.. سعادته الغامرة اكتسحته.. لم يتخيل اليوم الذى سيحقق فيه أحلامه يأتى هكذا سريعاً.. شعر أن شيئاً ما يتحطم بداخله.. بريق عينيه يختفى.. قدماه تتحجران.. لاحظ السماعة كالبندول.. أهملها.. إنه ليس على استعداد أن يسمع صوت أبيه فى هذه اللحظة.. لانه يعلم ان هذا الصوت الورع العميق سيحطم فيه رغبته إلى أحلامه.. خرج سريعاً بعد أن حدق بساعته.. بصق على اتجاه الضوء الأحمر.

* * *

المتحف كان خلفه.. قطيرات المطر كونت قطرات كبيرة اقتحمت عينيه.. مسحها فى عنف واصرار.. صوت سقوطها الرتيب فجر الملل. القلق بداخله.. تدافعت الأسئلة..

(الحادية عشرة إنه الموعد تماماً.. اننى أعلم أنه مجرد أكذوبة.. كلبة تريد التلاعب بكلب.. بى أم دبليو(؟!!) وأين هى منى؟..) كعادته لم يرحمه شقه الحالم فى هذه اللحظة.

(ستجئ.. حتما ستجئ.. لاشك أنها جميلة.. عيناها الزرقاوان.. شعرها الذهبى الحريرى.. شفتاها..).

لم يكمل.. ففجأة اقتحم مسرح عينيه ضوء العربة السوداء.. اهتز جسده.. ها هى كل احلامه.. جحظت عيناه (أين هى؟)..

فى هدوء هبط زجاج الباب الاسمر هو الآخر الى منتصف المسافة.. كان الظلام يلف احشاء العربة.. لم يتبين شىء.. انبعث الضوء من عود ثقاب يشعل سيجارة.. خطف بصره ما قدر له أن يخطفه منها.. الا إنه كان قليلاً.. فتح الباب.. وقف دون حراك طريد أن يراها أولاً..

- هل ستقف هكذا طويلا..؟.

كانت جملتها صاحبة اللحن الأنثوى كافيه (لجره) إلى الداخل.. ولج.. جلس..

فى آن واحد وضعت يدها على ركبته وتحدثت..

- اغلق الباب..

أغلقه فى هدوء.. انطلقت وهى تنفث فى وجهه الدخان.. سعل.. ضحكت.. كم كانت عربتها ساخنة.. ابعثت السخونة الأسئلة من جديد.. (إلى أين.. ماذا ستفعل بى.. ما هذا الغموض؟).

آثر الصمت التام.. توقفت أمام بناء ضخم.. فهم أنه هنا سينزل.. ولكن مسلسل الغموض استمر.. الضوء لا يزال قليلاً لكى يرى.. تملكه الغيظ.. يريد ان يقتنص ملامحها بأى وسيلة.. أخرجت المفتاح من الباب.. تقدمته.. الآن يستطيع أن يتفحص جسدها باءت محاولته بالفشل.. كان رداءها فضفاض اسود ثم لفت رأسها بوشاح أسود.. الآن عليه ألا يقبع خلفها ان يسير بجانبها حتى يتعرف على قسمات وجهها.. ما كاد حتى ارتدت نظارة سوداء ضخمة حجبت ثلث الوجه.. فتحت باب المصعد.. ولجا.. تواجها.. لابد ان يكون متماسكا أمامها.. فى البداية ابعث نظراته إلى كل ركن ولكن رغبته المحترقة التى احرقته وجهت عينيه إلى وجهها.. كان يخاف هذه المواجهة.. انها تراه من حيث لا يراها.. من خلف هذا الجدار الأسود.. القذر.. صبّر نفسه برؤية منخارها المتوسط

الذى يسند نظارتها البشعة.. شفتاها المنطبقتان فى حزم واصرار.. شىء ثالث بدأ يكتسحه تلك الرائحة الرائعة التى اقتحمت صدره.. استنشقها فى هدوء.. حاول ان يتكلم.. ان يصرخ.. ما أن حاول حتى رفعت سبابتها المغطاة بقفاز.. أسود ووضعتها إلى شفتيه.. ابتسمت.. كتم رغبته العنيفة فى الامساك بيدها.. بعمل اى شىء آخر خاصة بعد ان تسرب اليه الملل من هذا المصعد الذى طال صعوده.. أخيراً وصلا.. ابتلعته ردهة مظلمة ضاعت فيها بردائها الاسود.. استمر يتابع وقع الأقدام التى تعرف طريقها جيداً.. توقف هذا الوقع فجأة.. وقف.. فتحت الباب..

انطلق على الفور تغريد موسيقى هادئ وضوء أحمر عتيق فاقع.. سخر من ذلك الضوء الآخر.. لقد تساووا اذن..

دخلت.. دعته بيدها إلى الدخول.. دخل فاقتحمته رائحة داكنة غريبة جميلة.. أوصدت الباب..

أمسكت يده الملتهبة.. اجلسته أمام مائدة طويلة..

- لا شك أنك جائع..

لم يتحمل.. انفجر بها..

- من أنت؟ أريد أن اعرف من أنت؟.. وما هذا السواد؟.. وما هذا اللون الأحمر.. وهذه الموسيقى؟.. أريد أن أراك.. اسمعت؟.. اريد أن أراك.

- بعد خمس دقائق سترانى جيداً.. الآن كُل.. كل كل هذا الطعام.. ابتلع غضبه.. جلس فى هدوء يطلق زفيراً حاراً.. اختفت خلف احد الأبواب.. أبعد عن رأسه بعض الأفكار التى رأى انها تفسد متعته.. صرخ (سانسى كل شىء.. مهما كان)..

بدأ فى التهام الطعام..

دخلت فى رداء أسود.. تمتم خياله.. انها هى.. عروس الأحلام الوردية.. جلست أمامه..

- هل ترانى الآن؟

- مازالت ملامحك غير واضحة..

- ولكن كل شىء بك واضح لى..

- من أنت؟

- لا تسأل هذا السؤال.. عليك أن تأكل فقط..

- لا تأمرينى بشىء..

- لن آمرك.. ولن أجبرك.. هذا كله ستأكله بعد ساعتين أو ثلاث على الأكثر.. الليل طويل..

- ولكنه يجب ان يبدأ..

ضحكت ضحكتها الرقيعة.. قامت.. ؛جرته من يده إلى داخل حجرة غارقة فى لونها الأحمر الداكن..

- الآن نستطيع أن نستريح.

كانت معالم الحجرة واضحة تماماً.. سرير دائرى.. مرآة.. ماكياج.. دولاب مفتوح الشفاة مكتظ بملابس النوم..

جلست إلى السرير.. اكتسحته بنظراتها.. كان عليه ان يفهم ما عليه.. اضطرب.. لم يكن يعلم ان الموقف صعب لهذه الدرجة.. كان يجب عليه ان يتماسك خاصة ان خجله المعتاد مع حواء لم يعطه الفرصة لأى شىء.

- أريد أن يتم كل شىء فى الظلام..

كأن شيئاً ما أسعدها.. تهللت ملامحها..

- ليكن.. ولكن قبل ان يبتلعنا الظلام الا يجب ان تتناول هذا؟ أشارت إلى عدة أقراص بجانب كوب ماء..

- بالطبع..

اتجه إليها.. ابتلعها جميعاً..

كان عليه الآن ان يغوص فى أحلامه الخاصة بعد ان ابتلعهما الظلام.. ظل يتناسى كل ما يدور بصدره.. يهمله.. انه بالساعة الماضية حطم صوت ابيه.. الآن يحطم خجله.. يبث نفسه بين أياديها.. يتشبث بالسرير حتى لا تفضحه هزات جسده المرتعشة اعتقد ان تلك التنغصات التى تدمر متعته تنتهى مع الوقت حينما يدمر اللقاء كل شىء بداخله الا المتعة..

ولكن اللقاء تأخر كثيراً.. إنه يريد ان يضع نفسه أمام الأمر الواقع.. والظلام سيحجب عنه نظرته إلى نفسه..

إذن يجب ان يطلق نفسه أكثر معها.. طالبها برغبته فوراً..

لم تجب.. كانت مشغولة بجسده عن صوته.. طالبته باشياء غريبة لم يتصور ان تصدر من مخلوق بشرى فى يوم من الأيام.. أقحمت يدها إليه فى وحشية.. أظافرها أسالت بعض الدم من جسده.. ترك نفسه لها لأول وهلة.. ظن ان هذا سيهدئ منها بعض الشىء إلا أنها تمادت بشكل بشع فى اقتلاعه من جسده.. الحت

عليه فى مطالبها القاسية.. الشاذة.. المؤلمة.

حاول أن يجاريها ببعض ما تريد الا ان اصرارها على مطالبها جعله يثور.. يقتلع نفسه من بينها كلها.. انها لا تريد رجل لمطلب ضعف انها تريد (شيء) تبتلعه.. تسخره.. تفسده.. ربما تقتله.. سقط شقه الحالم.. لم يستطيع ان يقاوم التساؤلات التى الهبت صدره.. كان حزيناً ان رغبته تتهاوى.. يسحقها الألم.. كم تعجب لهذا الحزن.. الا ان هذا الحزن لم يدم.. فقد ظهر شعور جديد يحاول ان يشده من كل هذا.. شعور بالقدرة على الصمود.. ان الاحباط الذى أفعمه كان قد دمر هذا الشعور.. فقد كان الضوء الاحمر يهبه إلى رغبات تعيش دائماً فى الخفاء.. تقوم على انقاض قدرته وارداته.. ان هذا الوقت الطويل القصير من المتعة المتألمة والمفاجأة المذهلة والمطالب الشبه شاذة أفاقوه من غرق المتعة.. نبتت به قدرة الماضى على الصمود.. الآن أنفاسها فحيح.. ذراعاها ذات مخالب تمزق جلده.. لسانها المتدلى فى عطش يثير اشمئزازه.. لمح بريق عينيه رغم الظلام يعود من جديد بعد ان دمرته خمس سنوات فراغ.. مراقبة.. حب فاشل.. احلام هلامية.. عليه ان

يستجمع قوته ليخرج منها.. هدأ قلبه.. استعاد وعيه.. دفعها بيده بعيداً.. أذهلتها المفاجأة.. انبعث الضوء الأحمر بعد ضغطها للزر..

- لماذا توقفت؟..

نظر إليها فى بطء.. بلع لعابه.. استجمع قواه..

- أريد أن أخرج من هنا..

انقضت على منكبيه تعتصرها فى حنق..

- ماذا تقول؟.. ابعد كل هذا تريد ان تذهب؟..

- لا أريد مناقشة.. ارجوك.. اتركينى..

- لم أعد استطيع.. ماذا تريد منى كى أفعله لك.. أأمر بما تشاء..

- لا أريدك.. أريد أن أذهب.. أنا لست كذلك..

- لقد فات الآوان..

- أنت حقيرة.. شاذة.. أنا لست من الساقطين.. كانت لحظة ضعف..

- لقد أحضرتك الى هنا لكى تفعل ما أريده أنا..

- وماذا عما أريده أنا؟.

- إن ما أُطعمته كان من مالى.. هذا المكان من مالى.. وان كنت تريد مالاً سأعطيك ما تريد.. انا أعرفكم جيداً.. (تخرج رزمة مال

من تحت الوسادة تقذفه بها فتتناثر على الأرض) الآن أنت لى.. فى هذه الليلة المظلمة.. وفى هذا المكان البعيد.. اسمعت.. لى.. لى أنا وحدى.. وستفعل كل ما أريدك أن تفعله.. مهما كان..

لقد شاهد الآن رغبتها تحرقها.. ولكن الشىء العجيب أن قوته كات تشتد كانت رغبتها العنيفة ترفع من رأسه أكثر.. أخيراً استشعر قوته.. رجولته.. ها هو الجسد الذى لطالما رآه فى أحلامه.. ها هو يبث الشهوة ولكنه لا ينحنى له.. ها هى شفاة ترتجف فى سخونة تريد ان تلثمه ولكنه يزم شفتيه فى إصرار على الصمت.. ها هى الدموع تتقطر من عينين تتعذبان.. تشتهياه ولكن عيناه ببريقها تصعدان فى كبرياء تترفعان عن ذل الرغبة.. ها هى يداه التى لامستا مهده حالمتين من قبل.. ها هى ترفضان ان تمرا على جسد يدمر كل رجال الأرض..

أطلق الصعداء فقد عرف انه مَلِك زمام نفسه.. نجح رغماً عنه.. لم يستفق الا على صفعة صفعتها إياه.. كانت الصدمة قاسية.. ردته الى العالم الواقعى من جديد..

- أمازلت تقف كالصنم؟.. لا تتركنى.. أنت لى.

كان يجب عليه أن يؤكد تفوقه.. صفعها بقسوة.. ردد..

- أنا لى.. أنا.. أنا.. ولن أكون إلا لنفسى.. أما أنت.. فمن أنت؟ شىء أسود.. أفعوانى.. قمئ..

- ولكن جميل..

- يجب أن أراك.. ان اقتحم ملامحك..

انقض على كل الأزرار.. قاومت ذلك.. تشبثت بقدمه.. تخلص منها فى قسوة.. اخيراً أضاء النور العادى شعر بارتياح عندما تحطم الضوء الأحمر.. شد شعرها فى قسوة.. وضع وجهها تحت المصباح.. اصطدم بملامح ناعمة.. انها حقاً عروس احلامه.. عيناها الزرقاوان.. شعرها الذهبى.. بشرتها البيضاء.. رفعت برأسها اليه فى وهن انثوى..

- هل استرحت الآن؟.. هل رأيت وجهى فى ضوئك العادى.. هل رأيت جسدى الذى يدمرك؟.. لا تبعد وجهك عنى.. اننى امرأة.. دمها النازف من ركتلتك يرجوك الا تتركها.. هل تعلم ماذا يعنى ان تقول امرأة لرجل لا تتركنى؟.. هل دموعى تلك لا تستطيع ان تجذب رجولتك.. رغبتك؟

سقطت كلماتها كالصاعقة عليه.. انه ما لبث ان صمد.. الآن عليه ان يهرب مهما حدث.. ان يرتدى ملابسه بسرعة البرق.. ان ينسى ذلك المكان.. تلك المرأة.. لم تتركه يفعلها بهدوء.. قبلت قدميه.. قاوم. .عيناه ادمعتا.. أراد أن يخرج صراعه فى صرخة مكتومة.. اكمل الارتداء.. اغرس فمه فى جسد السرير صرخ فى قوة.. صدر صوته مكتوماً.. واجهها.. عيناها الذليلتان تشبثتا به تتوسلاه لآخر مرة.. الا انه كان قد قرر.. طرحها ارضاً بعيداً عن الباب.. رمى نظرةً على كل شىء.. خرج.. هبط السلالم فى نشوة.. الآن يستطيع ان يعود إلى داره فى سعادة لأول مرة منذ خمس سنوات.. سيسمع صوت أبيه مرة أخرى ولن يشعر حينها باحتقار لنفسه.. فى حركة راقية سارت يده على ياقة قميصه فى ثقة وكبرياء.. استشعر ذلك الشعور الجميل باحترام النفس.. أيقن قيمة الخجل.. اطلق العنان لضميره لكى يثنى عليه هذه المرة لا لكى يدفع اليه بالتساؤلات المحرقة.. بالغمز واللمز الساخر المهين.. تصور نفسه الآن فى متعته. اطلق السعداء.. كم هو بشع ذلك السقوط.. التدنى.. الآن يستطيع أن يعترف.. انه كان يتهرب من تلك الصفة التى كان سيلصقها

به الضمير.. الحيوانينة.. الآن يستطيع ان ينظر إلى الكلاب الضالة كإنسان يعلوها.. تذكر اثر ذهابه ذلك اللقاء بين كلب وكلبة ضالة على قارعة الطريق.. كانت المرارة تتدفق فى حلقه.. تلطمه أمارات الصغار والاحتقار.. لانه تساءل بماذا يختلف عن هذا الحيوان؟ الآن سيسبق الكلاب حتى فى ركضهم لانه انسان.. لانه انتصر.. الطريق كانت طويلة ولكنه لم يستشعر طولها.. فها هو بيته يبزغ.. انه لأول مرة يراه فيها طويل عريض عميق.. جميل.. خاصة مع ذلك النور القادم من الشرق.. كان شروق الشمس.. أول رسل الضياء.. الأمل.. انه ضعيف ذلك الضياء ولكن عما قليل سيشتد.. أعدل هندامه.. صعد درجات السلم الخشبية دون ان تئن هذه المرة.. فتح الباب.. استقبله أبوه فى فرحة.. وغضب.. سأله أسئلة كثيرة (أين كنت؟.. وكيف؟.. لماذا؟) سمع بعض كلمات (القلق.. الليل.. المواعيد) ولكنه لم يفهم أى شىء فقد كان يستمتع بصوت أبيه..

فى النهاية ألقى إليه الأب المفاجأة.. لقد وجد له عمل.. فار سرور الابن.. احتضن الأب.. عمل(؟!!) أين وكيف؟..

- إنه فى إحدى المصانع..

أخيراً وجد الابن أهمية لوظيفة والده كمدير سابق ومدير على مقهى المعاش فى الحاضر..احتضن الابن العنوان.. قرر ان من الغد حياة جديدة.. عمل جديد.. مال.. شخصية.. رجولة.. صمود.. دخل حجرته.. انفرد ثانيةً بنفسه.. جلس على سرير الأحلام.. ابتلعه الصمت الهامس.. كانت حجرته على اهمالها لا تزال تحمل عبق ما قبل خروجه.. صور الفاتنات تتصدر الجدران.. حدث ما لم يكن يتقوعه.. اكتسح خياله الجسد الذى هاجره.. ارتفع صوت بثها اليه حتى احتوى اذنيه.. اسرع بسد اذنيه.. اغماض عينيه.. الآن أن صورتها لم تكن من النوع الذى يذهب بالغمض.. كانت صورتهاتنبعث من داخله.. استفاق على عروس احلامه من جديد.. انقض على كل صورة.. معلقة على جدران الوهم يمزقها.. أحس أن اللحظة التى صمدها ستفلت من يده..

بعد أن مزق كل صور الماضى شعر ببعض القوة.. نام بسريره فى مكان غير الذى اعتاد أن ينام فيه.. تساءل فى مرارة ينكرها.. (هل كانت لحظة وفقط(؟!!).. (كلا.. لابد ان تستمر.. لابد ان تستمر).. احرقته الرغبة فى ان يشاهد الضوء الأحمر المنبعث من

الزجاج الوهمى.. اعدم الرغبة فوراً.. ابعد رأسه عن الاتجاه تماماً.. الا انه كان يجب ان يتأكد من اغلاق النافذة.. فقام فى حركات معتدلة حتى وصل إلى النافذة.. هكذا اصطدمت عيناه بزجاج مازال مصبوغ باللون الأحمر الداكن.. أغلق النافذة فى قسوة.. ردد فى حنق (كلاب.. ستتغير كل معالم الأرض ويبقون غارقين فى الضوء الأحمر).. تعجب.. ما له ومالهم؟.. ثار على نفسه انهم احرار فيما يفعلوه حتى لو قتلوا أبناءهم.. شعر بالضياع لأول وهلة.. فقد تشكك فى قدرته على تواصل الصمود.. فى قدرته ان يقيم ارادة خاصة عندما هتف مجبراً (إننى انسان.. أتذوق.. أشعر) كأن كل هذا مجرد مقدمة يخفف بها من وطأة اعترافه (إنها جميلة فاتنة) هل ستتبدل عروسه الوهمية التى كات تغذى رغبته فتقهره إلى عروس مادية يحركها خيال جامح وواقع يغذيه مقدمة لقاء حار لم يتم(؟!!) ما أبشع عروسه الثانية.. ان عنوانها معروف.. ونجواها له تبعث ذكريات قبلات ولمسات والتحامات قاومها باكياً.. صرخ حزناً بداخله.. (لن أعود إلى ما كنت فيه).. (لن....) لم يكمل.. إذ رن جرس المسرة.. تساءل فى حيرة عن السائل.. فى هذه الساعة لا يطلب

إلا معاكس.. الا ان السؤال الجحيمى قفز إلى عقله بعد ان فشل فى اهماله.. (أتكون هى؟) إن السؤال لم ينته (وماذا تفعل معها(؟!!).. استمع إلى صوتها فقط.. لا تذهب.. وانم استمتع واسمع).. كان عليه ان يحسم كل هذا.. تمالك نفسه.. رفع السماعة.. جاءه الصوت الكلثومى يكرر نفس الأغنية والمقطع.. علم انها هى وان صراعه لم ينته بعد.. اغلق السماعة فوراً.. قرر ان يقاوم نجواها مهما حدث.. استبدل ملابسه بأخرى لنومه.. توضأ.. احضر مصحف أبيه.. صلى كثيراً.. هدأ قلبه شيئاً يسيراً.. قرأ القرآن.. كانت تلك عادته.. ما ان يستشعر المشاكل.. يصلى ويقرأ القرآن.. شعر ان تلك اللحظة الفائتة اغلى من ان تهدر كما اهدر بعض لحظات قوة من قبل.. سيتخذها نقطة التواصل إلى الإرادة.. كم كان يستكين قلبه عندما يقرأن القرآن.. كم كان يتدارك نفسه عندها.. الآن.. يجب ان يقرأ.. انه وقت القراءة.. ليوم جديد.. عمل جديد..

* * *

ظل يقرأ الابن حتى جاء موعد الذهاب إلى المصنع.. انه اليوم الأول.. ينبغى ان يكون فى رونق ولمعان.. اقتحم الأب غرفته يحمل

كرافات جميلة.. أوصاه بان يكون صاحب مظهر مقبول.. لانه ظل طوال ستة وثلاثين عاماً يرتدى الكرفات اثناء عمله.. كان الجميع يحترمه.. يوقره.. احترم الابن (كالعادة) رغبة ابيه فى ان يكون المظهر متزن.. محترم.. لف الكرافات حول ياقة قميص أبيض.. اكمل ارتداء حلة بنية جميلة.. اخذه الأب بين يديه يتفحصه كأنه يفخر امام نفسه بزهرة العمر.. مجهود سنوات طويلة.. قبله.. انصرف الابن دون كلام.. تلقى سلامات من كل مكان بينما الأب يراقب كل ذلك بفرح شديد.. أما هو فقد كان يتعجب، على أى شىء يحيونه (؟!!) أعلى الحلة(؟!!) أعلى الكرافات(؟!!) أعلى وسامته(؟!!).. مر أمام الزجاج الوهمى وبلحظ خاطف أدرك انه قد أصبح بلا ضوء أحمر هتف فى غيظ (أخيراً؟!!).. تمالك نفسه.. خرج من حارته الصغيرة..

* * *

اتجه إلى السكرتيرة الحسناء.. دس إليها كارت خلفه توصية أحد كبار الواسطة فى مجال العمل.. طلب ان يقابل مدير وصاحب المصنع.. لم تهتم السكرتيرة.. وضعت الكارت أمامها واعتذرت فإن لقاءًا صحفياً يدور بالداخل الآن.. هرولت إلى الداخل سريعاً ومعها

سجل.. جلس فى هدوء.. اقتحمت المكان فجأة أنثى ملتهبة الفتنة أطاحت بوقاره واتزان عينيه..

سألته عن السكرتيرة.. أشار دون كلام إلى الداخل.. جلست أمامه.. رددها (وبعدين؟!!)..

عاهد نفسه من قبل ألا يترك عينيه تجول على الأجساد.. فكل جسد يتحول فى النهاية إلى الوهم.. حاول ان يتذكر بعض من آيات القرآن لم يستطع ان يتذكر كلمة واحدة.. عاودت سؤاله (هل ستغيب؟).. اتجه إليها بعد ان وجد الذريعة.. حدق فى عينيها جيداً فامتعضت أولاً من هذه النظرة الجامدة.. ثم لانت.. قال فى صوت عميق (لا أعرف...)..

ما ان اتجه اليها حتى لم يستطع ان يترك وجهها.. تفرس به.. ثم هبط الى عنقها.. صدرها.. الخصر.. هاله ما رأى بعد ذلك.. كان ردائها قصيراً إلى حد كبير.. تصلبت رأسه فى وضعها.. عجبه تزايد.. كيف تجلس هذه الجلسة القبيحة أمامه؟.. كيف لم تحاول ان تستر هذا كله عنه.. انها حتى لم تحاول ذلك..

سألته.. (ماذا عن طلبه..) اخبرها انه موظف جديد هنا..

نظرت إليه بتفحص ثم تحدثت فى لغة غريبة..

- ستكون فى منتهى الراحة هنا..

إلا أن ما أتته بعد ذلك عقد لسانه تماماً.. لقد ضحكت ضحكة انثوية ثم وضعت رجل عارية على الأخرى العارية فبدى انه لن يستطيع ان يستمر.. قام على الفور يريد أن يذهب.. الا ان دخول السكرتيرة انقذ الموقف.. وقف بلا حراك.. بينما حدجته الجالسة بنظرة منذرة.. سارع السكرتيرة..

- هل سأدخل الآن؟

- نعم.. لقد انتهت مقابلة الصحافيين..

هم ان يدخل.. الا ان الانثى القابعة قامت على الفور تعترض طريقه.. ساعدته بجمل فهم منها انه يجب ان يتعامل مع المدير كما يتعامل مع المتزمتين.. حتى لا يفقد الوظيفة.. ثم ضحكت ضحكة اشتم منها السخرية.. تعجب منها ومن نظرات السكرتيرة.. الا انه صمم ان يترك كل هذا وراء ظهره.. انه يود ان يبدأ حياة العمل.. الحياة الجديدة.. حاول ان ينسى ضعفه امام الانثى لتكون مقابلة مثمرة.. دخل.. غلق الباب.. كان الكرسى الكبير شاغراً..

جلس الى احدى الكراسى يلتقط انفاسه بعد موقعة هذه الانثى الغريبة التى أوصلت بداخله الحزن العميق والشك الكبير فى انه قد لا يستمر فى طريقه الجديد.. هكذا شق السؤال طريقه إليه فى تلك اللحظة الحرجة.. (هل ستنجح؟)..

أخيراً.. سمع صوت أقدام قادمة.. ضاقت عينيه فى لمح البصر.. أخذت الخطوات الآتية من الخلف تبطء حتى تسكن خلفه تماماً.. خاف ان يكون حدسه صحيحاً - كان وقع الأقدام وقع نسائى.. وقع يتطابق على وقع عروس احلامه الليلية التى يحاول تحطيمها.. استجمع قواه.. التفت بينما يقوم.. تواجها.. صرخ فى غيظ.. فى لحظة واحدة انبعثت آلام جديدة.. اسئلة جديدة..

كانت هى.. (مستحيل. أتكون هى؟.. عفت إن الكارت يقول إلى عفت.. عفت رجل وامرأة.. ولكن معه ينبغى ان تكون امرأة).. قالاها معاً فى صوت واحد..

- أنت؟

- أنتِ؟

تقلصت ملامحها.. جلست على كرسيها الضخم.. هوى على

مقعده دافناً وجهه بين يديه.. حدقت به.. اخبرت سكرتيرتها بلغة السلطة الا يدخل أحد مهما كان..

ضحكت ضحكتها الانثوية الفاجرة..

أدرك ان حياته الجديدة قد انتهت الآن.. ماذا سيلقى منها؟ مساومة.. انتقام.. مال.. بيع.. شراء.. اوهام.. عروس أوهام جديدة.. اين المفر من هذه المصيدة.. من متعته.. من رغبته.. منها؟..

إلا أنه قرر أن يقاوم أن يمزق ذلك الشك المتواصل داخله فى هذه الموقعة الفاصلة.. ان يقاتلها بروح اللحظة المضيئة السالفة وبأمن كلمات القرآن التى أخذ يتذكر كلمات قليلة منها تثبته أمامها.. كانت المقاومة تعنى له أن ينظر إليها.. ان يحدق بعينيها الرهيبتين الزرقاوين.. بشفتيها الشرهتين.. أدار وجهه فى بطء وإصرار.. تواجها.. الآن يستطيع ان يلاحظ كل قسماتها جيداً.. كانت أروع ما يتخيل.. كان عرقها.. شعرها المشتت.. قد نالا منها.. الآن هى أقوى من الليلة السابقة.. هكذا عليه ان يقاوم أكثر.. خلعت الوشاح الذى يغطى جزءً من رأسها وعنقها.. خلعته فى انثوية مصرة..

- حقاً.. العالم صغير جداً يا عزيزى..

- أأنت عفت يا سيدتي(؟!!)..

- كيف لم تعرفنى بالأمس؟

- إننى أعرف الاسم فقط ولكنى لا اعرف الصورة.. لاننى منقطع عن الصحف والاعلام منذ وقت طويل جداً..

- لماذا؟..

- لاننى عاطل منذ زمن طويل جداً..

- عاطل(؟!!).. (رجل) مثلك.. يكون عاطلا(؟!!).

- رجل مثلى.. عاطل بالفعل..

- وهكذا فأنت غير متزوج..

- أنا غير متزوج..

- وكان الأمس المرة الألف..

- كان المرة الأولى..

ارخت ظهرها إلى راحة الكرسى هتفت فى رغبة..

- كل هذا فى المرة الأولى (؟!!).. انك إذن عذريّ..

مازال أمامى وقت معك.. سأعلمك..

أشاح بوجهه بعيداً عنها فى قنوط.. لاحقته..

- هل تريد أن تقول شيئاً؟..

- نعم.. أريد أن أقول الكثير.. كل كلمات الأرض تدافعت إلى رأسى منذ أن علمت انك عفت..

- قل يا حبيبى كل شىء..

- أنا لست حبيبك.. أسمعت؟.. أريد أن أسألك سؤالاً..

- سل ما تريد.. كلى لك..

- لماذا تفعلين كل هذا بلا اكتراث.. بلا أقل شعور بالذنب؟.. او حتى شعور بالخجل؟..

أفزعته بضحكة ساخرة.. قامت.. واجهته.. ركعت.. استقرت بين قدميه.. احتضنت خصره.. قاومها.. دفعها أرضاً.. تعجب.. انها لم تقم من الأرض..

- هل ستقبعين هكذا؟

قبلته فى برود وإثارة عبر الهواء ثم أردفت..

- نعم.. أحب أن أتحدث وأنا عند قدميك..

- ماذا تقولين؟

- أقول كل ما تريد ان تعرفه..

- لماذا تفعلين كل هذا وكأنه من حقك..

- لأن كل شيء من حقى..

تردد فى مقولته.. صاحت فى حنق..

- لا تحجب كلمة واحدة قد تتخيل انها تؤذى مشاعرى.

- هل من حقك اصطياد الرجال؟.

- حبيبى الذى لا اعرف اسمه – أنت شديد المثالية- وأنا على عكسك تماماً.. اننى شهوة متحركة.. أفسدنى رجل مثلك فى يوم من الأيام أحببته وهجرنى.. لم استطع أن أعيش كأنثى عادية.. لقد جعلنى أحب رغبتى إلى حد الجنون.. بل انا مجنونة فى رغبتى.. اعصف من أجلها بكل شيء.. مهما كان.. هل تود أن تعرف عنى أكثر.. رجل واحد لا يتحملنى يا حبيبى..

- لا أصدق.. اتكونين أنت عفت(؟!!) القريبة إلى التزمت؟

- أننى أعيش ككل الناس فى النهار.. أعيش من أجل الناس.. من أجل العمال الذين يعملون فى مصنعى.. من أجل العامة.. ولكن عندما يأتى الليل.. فأنا أعيش لنفسى.. لى.. لرغبتى.. وليعيش من أجلى رجل واحد ممن خدمتهم فى النهار.. أرأيت كم هى حياة

سهلة.. واقعية..

- واقعية(؟؟!).

- نعم.. اننى اعرف ان وقع هذا ثقيل على مسامعك.. لانك مثالى يا حبيبى.. اما أنا فأنا من السواد الأعظم.. أعيش كما أريد أنا.. لرغبتى أنا.. حتى أصل إلى نشوتى دون الخضوع الى أوهام مثل كلمة احترام.. خجل.. ان الانسان الآن يعيش محترما رغما عنه.. كم من الساسة من يمثلون على شعوبهم ويمثلون بهم فى الخفاء لانهم سفاحين يحبون الدم.. ولكنهم لا يجرءون ان يقولوا هذا للشعوب لانهم محترمين رغماً عنهم.. بل كم من الكتاب شواذ جنسياً وفكرياً وعقلياً ويبرعون فى كتابة نظريات العدل والحرية والنقاء.. هل تعرف لماذا لا يعترفون؟ لانهم مقيدون بسلاسل من الاحترام الغير موجود أصلاً.. اليس هذا واقع..؟.. أليس هذا من المجتمع؟..

- كل هؤلاء قلة..

- الكثرة الآن يعيشون محترمين رغماً عنهم لانهم يجدون مجتمعاً ودیناً وتقاليداً يجب ان يحترموها.. انهم يتمنون لو كانوا قد ولدوا بلا شيء.. عبثيين فى عالم هلامى.. الناس لا تخطئ لانهم يخافون بعضهم البعض ولو أنهم اتفقوا على الا يخافوا من بعضهم

البعض.. على ان يتصارحوا.. لفعلوا كل الفواحش.. انها ورقة التوت الواهية يا رجلى الحبيب.. اننى اعرف جيداً كل الحقائق.. كل الحرام.. كل الحلال.. هذا الذى يفعله الناس وأفعله أنا.. شِرك.. هكذا قال لى شيخ مكث معى يومين كاملين بعد رنين التليفون.. فى شقتنا.. التى أصبحت تعرفها جيداً..

تهاوى على المقعد.. اتجهت إلى قدميه تحتضنهما..

- شيخ(؟!!) مستحيل(؟!!).

- صدقنى كان شيخاً..

- أنت تريدين ان تحطمينى.. ان تقنعينى بان كل شىء ملوثًا فاسدًا..

- لا تحزن يا رجلى الجميل.. إن هناك من يحترمون المجتمع.. يعرفون الله.. ولكنهم لا يسطيعون ان يكونوا فى الصراط المستقيم.. لانهم ضعفاء.. هل استرحت الآن؟.. وهؤلاء فى سقوطهم أبشع من سقوط السفلة والنصابين واللصوص.. مازال فى جعبة حبيبتك الكثير.. باقى صنف واحد من الناس.. اولئك الذين يسبوننا نحن الشهوانيين.. يسبوننا لاننا نمارس الجنس ونفعل كل ما نريده.. ولكن هل تعرف لماذا يسبوننا ويكرهوننا؟.. لانهم أقذر منا وأنهم لا يملكون الفرصة لكى يفعلوا مثلنا.. وهؤلاء أيضاً عندما يجدون

الفرصة يكونون أبشع من الجميع.. وفى النهاية.. فى نهاية المجتمع المزعوم.. الذى أقوده.. الذى اعتبر إحدى نجماته.. فى النهاية يبقى من هو مثلك شديد المثالية.. لا يضعف حتى تحت تأثير من هى مثلى.. شهوة مجسدة..

- إنك مريضة يا سيدتى..

- لا تقل لى سيدتك.. سيدتى.. سيدته.. أنا لا أحب أن أعيش محترمة فى ظل لحظات عدم احترامى واعترافى.. اننى شديدة الصراحة مع نفسى يا رجلى الحبيب. لا أحب النفاق..

- صدقينى الناس ليسوا بهذا السوء.

- صدقنى أنت.. أنا أعلم أكثر منك.. أنا لست بمعزل عن الناس.. أنت الذى اعتزلتهم.. الذين يمشون فى الشوارع ناس.. الذين فى مصنعى ناس.. أرأيت الذين فى مصنعى؟.

- رأيت واحدة فقط.. ترتدى رداء فظيع..

- انها (فاتن).. متخصصة فى عقد الصفقات..

- وأنت التى تديرين هذا كله..

- صاحبة كل هذا ومديرته.. ولكنى أعدك بما تختاره أنت.. اننى فى النهار أعيش فى شدة الاحترام وأعنف كل متسيب واتجاهل

تماماً أفعال البنت الرائعة (فاتن).. بل أوصيت لهم أننى متزمتة.. قاسية.. ولكنى على عكس كل ذلك فى الليل..

- وهل تنوين أن تعيشين هكذا للأبد؟

- الأمر كله متوقف عليك.

- عليّ أنا..

- تستطيع ان تكون أنت المدير..

- المدير..؟

- وكل مالى تحت قدميك.. تماماً مثلى الآن..

- وما المقابل؟..

- عذريتك.. عينيك.. رجولتك..

- ولماذا أنا بالذات؟..

- لاننى أحببتك.. بجنون.. أخيراً وجدت الرجل الذى أستطيع أن أحبه.. كنت أبحث عنك لاهبك كل ما تريده منى.. مهما كان..

- لماذا؟..

- لأنك الرجل الوحيد الذى أذلنى.. كل الرجال كانوا عبيدى.. يأتون.. يذهبون دون ان يعلموا حتى من أناس.. كان الضوء الأحمر يلهبهم.. يرضخهم.. فأصيب منهم ما أريده.. ولكنك الوحيد الذى

صفعنى.. ركلنى.. أذلنى..

- هل تريدين أن تتزوجيني(؟!!).

- بالطبع لا.. لان مطالبى منك ستقتل الاحترام تماماً.. والزواج علاقة محترمة.. وأنا لا أستطيع أن أكون محترمة الا فى النهار فقط.. الا اذا تعاهدنا ان نكون كما نريد نحن لا كما يريدنا المجتمع.. او اى انسان آخر.. يا رجلى الحبيب لن تتحمل زوجتك أن تكون كمن هى مثلى..

- انك تستطيعين أن..

- لا تعظ يا حبيبى.. الوعظ هنا ليس له أى فائدة.. أريد أن أسمع رأيك..

- للاسف..تقدمت الى هنا كى أعمل لديك.. ومنذ قليل كانت الصحافة تتحدث عنك كنجم من نجوم المجتمع.. هذا المجتمع العالى الذى كنت أخاف ان اسير بجانب مبانيه الشاهقة.. سياراته الفارهة.. هذا المجتمع المحترم.. ماذا أقول عنه(؟!!) وهل يملك الآن أن يجعلنى احترمه(؟!!) اذا كنت أنت يا متزمتة المجتمع كذلك فماذا عن الذين لا يدعون انهم رواد صلاح واصلاح(؟!)..

لقد ايقنت الآن أن أبى عاش مغفلاً.. رجل ارتدى الكرافات

اربعين عاماً ليعيش محترماً.. ولكن الذى يطمئننى انه كان محترماً من الداخل.. اما أنتم فإن قشوركم محترمة.. وانفسكم قد ضرب بها السوس فانهارت كأشد ما يكون الانهيار..

- كنت أعلم أنك حقير.. ستعذبنى.. ستذلنى وهذا ما سيجعلنى أحبك أكثر.. أريدك أكثر..

- وها أنا ذا أرتدى نفس الخدعة.. الكرافات.. كى أكون محترماً.. ولكن لمن.. ومع من؟.. اننى الآن اخلع سترة ظلت على عينى طويلاً.. اخلع الكرافات.. لان حارتى على تماديها فى رغبتها لا تنهار من الداخل هذا الانهيار البشع..

يخلع الكرافات.. يرميها إليها.. تحتضنها.. تقبلها.. تنفس الآن كل الصعداء.. انها لا تستحق ان تضعه فى امتحان الإرادة.. انها مريضة.. انه انتصر.. حطم الشك والعروس الوهمية.. الآن يستعيد كثيراً من كلمات القرآن.. لم يُفلت لحظة صموده الأولى.. انه الآن يتحرر من وطأة اللون الأحمر خلف الحاجز الزجاجى الجارح إلى الأبد.. يتحرر من كرافات الزيف والخداع..

سينطلق يعمل كل ما يحلو له الآن.. كان يود ان يعمل منذ أن تخرج فى أى شىء ولكن العائلة ثارت.. ماذا عن الناس؟.. ماذا

سيقولون؟ سيفضحون العائلة لو أنه عمل فى محل صديقه رمزى للفول والطعمية.. انهم الآن لن يستطيعوا ان يجعلوه يخضع لقواعد لا يعمل بها أحد.. لقواعد مزيفة كل مهمتها عرقلة المكافحين.. قرر ان يبدأ مشروعه مع رمزى.. ذلك المشروع الذى فكر فيه منذ عام ونصف.. سيفتح فى نفس المحل منفذ لبيع البليلة.. انه على ثقة انه سيكسب.. سيتزوج عروس حقيقية غير وهمية ولن يجعل فى غرفة نومه.. ضوءاً أحمراً.. نظر إليها.. كانت تقوم فى ضعف لتستقر على كرسيها.. وقد استقر فى يدها كأس خمر تغتصبه فى سخرية.. ثم تعاود حياتها.. تحاول أن ترسم ابتسامة احترام خارجية.. انشرح صدره.. فقد وجد الضياء شديداً فى هذا الوقت من الظهيرة.. فهو واثق انه من الآن فصاعداً لن يتجه الى لوح الزجاج الأحمر لانه سيصلى.. سيمزق كل الكرافاتات.. يبيع البليلة.. يشعر بالاحترام من الداخل.. ولن يقولها بعد ذلك.. طظ.

* * *

(٢)
العملاق

لم يصدق إنه يسير فى الطريق إليها.. الأقدام خفُت دبيبها معلنة اكتساح الليل.. «إذن فقد بدأ عالمها».. هكذا ردد.. لم يعد يسمع الا ارتطام عصاه بالأرض.. رد عويناته إلى منخاره الأحمر ثم اطلق نظراته إلى دارها الذى اقترب منه.. ها هو بؤرة أحلامه منذ الأيام الخالية.. انه يعلم تماماً ما يدور خلف هذه النافذة المغلقة.. يرى الضوء الأحمر يبتلع المكان.. اطلق زفرة طردت رؤياه.. عض على نواجذه.. استطرد المسير.. (لا أريد أن أذهب الآن).. تحير. تسأل فى حزن كيف جاء إلى هنا(؟!!).. لم يستطع حتى اجابة سؤاله.. هل هذه دموعه.. أم تراها قطرات الندى التى تجلطت على وجهه(؟!!).

أخيراً قرر العودة إلى داره.. تهاوى على مقعده «المتأرجح»

خلف النافذة.. كان المطر يلطم الزجاج ولكن لم يحجبه شيء عن مد بصره اليها خلف السحاب الداكن.. دفن وجهه بين يديه.. أراد أن يعتصر عقله.. ان يقتلع ضحكتها.. ابتسامتها من جذور عقله.. صرخ بصوت مكظوم.. (لا.. لا..).

ترددت أنفاسه المتصاعدة بين الجدران فلم يسمع إلا صداها.. قام بسرعة البرق رغم وهنه إلى المرآة.. وقف إلى حافتها.. لم ير إلا منكبه الأيسر.. أخذ يستجمع قواه ليتزحزح إلى المرآة.. يريد أن يرى نفسه.. يواجهها.. يسألها.. حاول.. تقدم خطوتين.. أخيراً تلاقى مع شطره.. تصاعدت روحا بقوة بجنبيه.. (ما هى إلا خطوة واحدة.. ترى.. كيف أنا الآن).. وبالفعل خطا خطوته الأخيرة.. تواجه مع صورته.. التقت عيناه بعينين.. أطلق زفرة حسرة. هل هذا هو شعره الاسود الحريرى الذى كان.. أين الآن من ماضيه.. أن المشيب قد عَفنّه والصلع قد آتى على مفرقه الا قليلاً.. آه.. عيناه الزرقاوان.. غرقا الآ فى يم من التجاعيد.. بشرته الناصعة.. تهدلت الآن مكامن اشراقها.. مد يده عساه ان يتلتمس هذا الحاضر الغارب.. هل يستطيع أن يعدل فيه؟ أن يُجمّله؟ نفخ فى فمه من ذكرياته.. ثم

رأى وجهه المستدير مرة أخرى.. ولكن ما لبث أن تسرب الهواء من فيه.. فانزوى خداه إلى أعماق وجهه.. حاول أن يطمس شاربه الناصع ولكن يده لم تتحمل ان تحجبه.. كم كان يريد ان تعاوده أحلامه الآن.. وهو يستطلع الشباب.. حدق فى أعماق مرآته راجياً إياها.. رأها تجئ من الأعماق.. من هناك.. انتفضت عيناه من محجريهما.. هتف.. ها هى.. نعم.. اننى أراها.. رنت ضحكتها فى الصمت فبددته.. سمع طرقات قدميها بالأرض.. كانت كل طرقة تحطم بعض من قوته أمامها.. حتى اذا ما طغت على كل المرآة.. وقف أمام صورتها الحية وقد شعر ان قلبه ينبض من جديد.. الدماء تتدفق فى أوصاله.. كم كانت جميلة.. تلك الشفاه.. ذلك الشعر الأسود العنيف.. صدرها.. تقدم إليها يحدق بعينيها.. أراد أن يحتويها.. ان يدفن وجهه المتهالك فى صدرها الرحب.. ما أن لمس المرآة حتى اختفت.. ثار.. كيف لها ان تختفى.. هى دائماً تريد ذلك.. تنسحب فى وقت مناسب.. وقت أن يتأجج قلبه.. ان يمد لها يديه لتنتشله من الوهن الساخن.. صرخ.. ينبغى ان تعلمى انك دونى.. انك مجرد امرأة.. أنا رجل.. أنا المفكر العملاق.. أنا صاحب

القلم الذى حطم الكثير.. من أنت؟ مجرد راقصة.. مجرد.. توقف فجأة.. لم يستطع أن يكملها.. كان يود ان يواجه بها نفسه.. عاهرة.. سقط صمته على نفسه كالصاعقة.. انه يرفض كل هذا. يرفضه.. وكأنها معه.. اكتسحت ضحكتها الساخرة أذنيه.. ما لبث ان غرس أصبعيه بهما.. ولكن بلا جدوى.. فتلك الضحكة من اعماقه لا من الخارج.. صرخ.. لن تسيطرى عليّ.. أسمعت لن تسيطرى عليّ؟.. اننى استطيع أن أسحقك كما سحقت من هن أروع منك.. من هن أجمل منك.. لقد عشت بدون زواج لانكن لا تستحقن منى قلامة الأظفار.. آه.. إننى أراك.. اسمع صوت (طرقعة) شفتيك.. ضحكتك.. انقض على عصاه.. حطم المرآة.. لم يكتف بهذا بل وطأ زجاجها بقدميه فى قسوة.. مرت لحظات.. أراد ان يلتمس منابع قوته.. اتجه إلى مكتبته.. مر بنظره عليها.. هنا أصدقائى..

هذا فولتير.. هذا سان سيمون.. سارتر.. انظرى.. هذا ستردنبرج.. جوركى.. كل هؤلاء.. وغيرهم.. اصدقائى.. عشت معهم.. عاشوا معى.. هنا.. هنا سأقتلك.. هنا سأضع شفتيك تحت حذائى.. فى القمامة.. لن تستطيعى ان توقفى مسيرة كفاحى وقلمى.. يجب أن أدفنك..

أن أقتلك.. سأصفعك أمام الجميع.. سأمثل بجثتك التى تتاجرين بها لاجعل منها مشاعاً للديدان.. اتجه إلى مكتبه امسك بقلمه فى قسوة.. سيطر على أوراقه.. كتب فى منتصف السطر (العاهرة).. كم وقف كثيراً أمام الكلمة.. كم تردد فى تسطيرها.. ألهبت صفوف كتبه خواطره.. استطرد وكتب.. (أوقفوا هذه العاهرة.. كان يجب أن تُمنع بأى شكل.. تمنع من الظهور.. احجبوها عن العالمين.. انها..). لم يستطع أن يكمل.. توقف القلم بين أنامله النحيلة..

تساقطت حبات العرق من فوق تل منخاره الدامى الى اوراقه.. اشاح عويناته بعيداً فاذا بعينه.. تضخ الدموع.. ضغط بقلمه على أوراقه.. تحطم القلم.. ردد فى ضعف.. (أيتها الملعونة.. أيتها الراقصة.. أحبك).. كم كان اعترافه مهيناً له.. قاسياً.. الا انه حاول ان يهرب من مرارة الاعتراف.. حاول أن يلج بعقله إلى مسالك شتى..

ضغط على زر بجانبه.. رفع رأسه إلى التلفاز.. توجع فى ألم.. كانت هى أيضاً.. حاول أن يذهب ببصره عنها لم يستطع.. أخيراً أعاد عويناته سيرتها الأولى.. اسند وجهه إلى راحته.. أخذق يحدق.. كانت ترتدى حلة الرقص.. تلاعب قلبه مع الانغام.. وتهاوى عقله

مع حركات جسدها..

هتف فى عنف (أهو حصار؟) هوى بيده على الزر.. راحت الصورة فى هدوء غريب.. مرت لحظة صمت رهيبة.. دق جرس المسرة..

هرع إليها فى قوة شديدة.. التصقت يده بالسماعة.. تردد.. (أيرفعها؟).. بعد ثوانى.. رفعها.. وكما توقع كانت هى.. لم يكن يعرف كيف جاء صوته من أعماقه رصيناً كعادته.. لقد بذل مجهوداً رهيباً لكى يحافظ على إتزانه..

- لماذا لم تحضر؟..

- ولماذا لا تحضرين أنت؟

كان يود أن ينهى المكالمة فى أقصى سرعة.. كانت امرأة محترفة.. لهذا اخذ صوتها يعبث بأسلاك المسرة ثم يقتحم أعماقه حيث مكامن رجولته.. هكذا احتد بعد عدة جمل ليس لها قيمة..

- ماذا تريدين؟

- أريدك..

سقطت كلمتها على قلبه برداً وناراً.. لم يدر ماذا يقول.. لاحظت ارتباكه فضحكت ضحكتها المحترفة.

- ألم تسمعنى؟.. أريدك.. ألم تفهمنى أيها المفكر العملاق؟

ورد فى التو..

- أتسخرين؟

- محال أن أسخر من طراز مثلك؟

مرت لحظة صمت..

- أتحبينى؟

- لا..

- أنت قذرة..

مرة أخرى تصمت فتلتهب مشاعره..

- قلت لك.. أنت قذرة..

- ولكنك تحبنى.. لا تحاول أن تنكر..

اكتسحه الصمت..

واستطردت.. (لا تحاول الخروج من قلبى وسلطته.. أنا لم أطالبك بشىء.. أنا لا أحبك.. ولكنى فى نفس الوقت.. أريدك.. أنت رجل من نوع جديد.. لم أقابله أبداً..

- كيف لا تحبينى وتريدينى..

- ولكنك تريدنى أكثر مما أريدك.. لا تكذب؟

- أنا لا أكذب.. اسمعت؟

- نعم.. اسمع.. هل يجب ان يعلو صوتك هكذا.. حتى اسمع..

- اسمعى.. انت مجرد راقصة.. وأنا لن..

- لماذا لا تكمل.. استاذى العملاق الذى لا أفهم مما يكتب كلمة واحدة.. لماذا لا تكون صريحاً.. أنا قلت لك.. اننى لا أحبك ولكنى أريدك.. أعشق فيك الرجل الذى لم أقابله أبداً.. أما أنت.. أيها العملاق.. فلا تقول الصدق.. لماذا لا تزيل الجبل الذى يطحن قلبك.. لماذا لا تقولها.. أحبك؟.. لماذا لا تقولها.. أريدك.. أننى أريد أن أقول شيئاً آخر.. أرجوك لا تتهمنى بالكذب مرة أخرى.. ربما.. أحبك.. وهذا متوقف عليك أنت..

ولأول مرة جاء صوته ناعماً..

- (أحلام).. ارحمينى.. لم أعد استطيع المقاومة..

أخذتها المفاجأة.. لهثت أنفاسها.. لم تكن تتوقع أن ينهدم العملاق أمامها هكذا سريعاً.. أغمضت عينيها فى لذة.. كم كانت سعيدة بممارسة سلطتها على العملاق.. جاء صوته مرة أخرى..

- أحلام.. اتسخرين منى..؟ اننى احتقر نفسى منذ أن ذهبت إلى تلك السهرة التى كنت بها.. منذ ذلك الوقت وأنت تحاصرينى.. وجهك يقتحم كتبى.. أوراقى.. مِدادى.. أحلامى.. نعم.. لماذا لا نعترف.. اننى أحتقرك.. ولكنى أحبك.. هذا ما لا أعرف له سبباً.. لم أستطع أن ابنى أمامك حائلاً.. (أحلام).. لقد اكتسحتينى.. لقد ظللت أبحث عن سبب لضعفى.. ولضعف إرادتى أمامك.. لم أجد شيئاً..

- لا أريدك أن تفكر.. أعطنى حبك.. وفقط..

- حبى؟.. اتسخرين منى؟ ماذا أستطيع أن أعطيك؟ إن عمرى الآن سبعة وستون عاماً.. كيف يلتقى أقصى الخريف بأقصى الربيع.. بالثلاثين عاماً؟..

- لا تقلق.. اننى تحت قدميك.. هل تحزن عندما أقول لك الحقيقة؟

- لا..

- استاذى الذى لا أفهم منه شيئاً.. ان صنعتك ان تكتب.. ان تقرأ.. ولكن صنعتى هى الرجال.. ان كنت تخشى أو تخجل فلا تخشى شيئاً.. معشوقى.. ان دفء شبابى سيلتهم ما تدعيه من

شيخوخة.. انك لم تتزوج لهذا لا تعرف ما هى المرأة..

- أتريدين أن أغامر بالبقية الباقية من كبريائى؟

- سأسامحك.. اننى أعرف أننى بالنسبة إليك سقوط.. ولكنى أعدك أنك لن تفقد كبريائك بين أحضانى..

- أحلام..

- لا أريد كلام.. تعالى الآن.. فوراً..

ثم أرسلت إليه قبلة غريبة الصوت.. انتفضت لها مشاعره.. وانتهت المكالمة..

يجب أن يصل بأقصى سرعة.. انه يريد ان يلقى بنفسه بين أحضانها.. يريد ان يمر بيديه النحيلتين على جسدها الافعوانى.. حينئذن تذكر ان كلتا يديه لطالما امسكت بالقلم من قبل.. أهمل هذه الفكرة على الفور إذ أنها لم تعد تحمل إلا معنى واحد.. الفشل.. دخل حجرة مكتبه.. مدفوعاً ببعض غروره الباقى.. أعاد النظر فى كل أرفف كتبه الجامدة.. ضغط بسبابته هيكل عويناته ليعيدها سيرتها الأولى.. نظر الرف المخصص لمؤلفاته.. ضحك ضحكة غريبة.. ثم دلف بعينيه إلى كل ما بين الرفوف.. انتابه

شعور ثورى مخيف.. هتف.. (أصدقائى.. سامحونى.. بل أنا الذى أسامحكم.. الحقيقة اننى لا اعرف من سيسامح الآخر؟.. أريد أن أسألكم سؤالاً.. لقد تعاهدنا معاً منذ سنوات طويلة ان نبنى الانسان الجديد.. ألست أنا من كان يتحدث عن الإرادة؟ أين هى الآن؟ اننى لا أستطيع أن أسيطر على قلبى الذى بين جنبى؟ لم أعد أريد أن أعرف شيئاً.؟.. لا عن نفسى ولا عنكم.. هل تودون أن أقول لكم كلمة أخيرة.. كم هى مريرة.. ولكن يجب أن تسمعوها لانها حقيقة أُحرق على جمرها.. كم أنا – أمامها – دون إرادة)..

مرة أخرى انتابه الحنق.. فراغ على الأرفف يشبعها ضرباً بعصاه.. كم شعر بالألم عندما سقطت الأرفف والكتب أرضاً.. تهدجت أنفاسه.. شيع المشهد كله بلحظ غريب.. خرج..

* * *

أما هى فقد كانت تكتسحها السعادة.. منذ أن وقعت عيناها على العملاق حتى تنبهت بها مكامن أخرى.. تساءلت.. لماذا يصرف نظره عنها؟.. لماذا لا تذوب إرادته أمامها؟.. هذا المغرور الذى يجب أن يخضع.. كم التهبت معركتها عندما علمت مكانته..

قدرته على ذبح أى إنسان بحد قلمه.. آه.. لو كانت تسطيع أن تسيطر على هذا القلم.. أن تمارس سلطتها عليه.. ان تخضع كل هذه الكلمات.. المكانة.. عند قدمها.. انها تود الانتقام من الجميع حتى يتساوون بها.. كلهم معها يكونون فى مستوى واحد بالمهد.. كلهم عرايا يريدون منها ما تعطيها هى لهم.. كم انتشت عندما لاحظت ان قطرات الإرادة تدمع من بين جفنيه وأن الرموش لا تستطيع حجبها عنها - كم انتشت عندما سمعت تأوه الرجل المحب فى كلمات العملاق الشريد.. كم سعدت عندما تلمست شفتاه بشفتيها النهمتين فى غفلة منه.. تمتمت.. الآن.. سيرضخ.. سيجثو يلثم يدى.. يرددها.. أحبك.. ثم تمارس سلطتها وتغتال إرادته عمليا عندما تحتويه.. تغرس أظافرها الحمراء الطويلة فى جسده المجعد.. لقد احتارت.. من سيفترس الآخر؟ ساعتها ضحكت ضحكة المحترفات.. هبت تستعد للقاء المنتظر.. أشعلت الخفوت الأحمر الداكن فى كل ركن.. ارتدت ثيابها الذى لا يحجب شىء منها.. انقضت على سريرها الواسع تهندم أطرافه وتدس الزوائد فى مكامنها.. تحت المرتبة الناعمة.. نظرت بلحظها إلى حجرة النوم فى

فخر.. هتفت تعض شفتها (سأسحقه هو.. والآن..).

أغلقت الباب فى هدوء وجلست على المقعد المواجه للباب جلسة غريبة.. وانتظرت القادم بينما الباب موارب.. بعد دقائق حارقة ارتعد لها جسدها.. سمعت أقدامه تصعد ببطء.. تحك الأرض فى وهن.. دفع الباب.. اكتسحه الضوء الأحمر.. امتلأت رئتيه برائحة الانثى.. اغلق الباب.. ولج بخطواته حيث تكمن فى نعومة.. جثى على ركبتيه بينما هى فى مقعدها.. هوت عيناه أرضاً.. مدت يديها إلى وجهه.. تفحصته.. شعرت بلهيب الدماء يلفح يديها.. لم يكن فى سخونة الدماء التى ألهبت جسدها كله.. دفعته إلى صدرها فانقاد لها.. دفن وجهه فى صدرها المكتظ فاكتسحته دغدغة هادئة.. اتجهت به إلى المائدة.. تلاقت النظرات المبتسمة.. كان طعاماً شهياً.. قطعت التفاحة.. أطعمته قطعة بعد أن قضمتها.. سارت به إلى المخدع.. تلكأت قدماه.. فتحت الباب فأصدر صريراً غريباً.. دخل ومازال مشهد حجرة مكتبه يثير حنقه.. أغلقت الباب..

* * *

(٣)
القـــرار

كانت تجر قدميها ونفسها بين شقيّ الرحى.. لم تعد تثق فيما كان لها الحياة.. فماذا لو أن ما شكت به قد أضحى الحقيقة(؟!!)..

صممت على المواجهة.. تلك المواجهة التى قد تكلفها الاطاحة بما تدخره لإقامة رأسها.. صعدت الدرجات الثلاثين.. مرت بيدها على شعرها الذهبى تُطوّعه.. تسللت يداها الى جوانب قوامها تتشبث بمادة جمالها الاسطورى التى أثملته من قبل.. دقت الزجاج الأغبر ثلاثة دقات متتالية حتى لا يعتبرها ممن اقرضوه..

بُعث الضوء حثيثاً.. انفجر بركان قلبها نابضاً.. فارتجفت شفتاها مع كل نبضة.. فى سرعة البرق عاودتها الأسئلة الدائمة.. ماذا ستقولين له؟ هل ستلقين بذاتك إليه؟ هل ستقتليه؟ وماذا ستفعلين عندما يخترقك بنظراته الوقحة؟.. حينها فتح بابه.. سادهما الوجوم.. عقلت المفاجأة عينيه فتجمدتا فى محجريهما..

أما هى فقد صفعها وجهه المتجمد بعنف فكأنها تبخرت فى الهواء وتبعثر رمادها تحت قدميه..

تحرك بجسده بإيماءة وقحة فانفتح لها ثغراً نفذت منه فى حرص شديد.. هذه المرة تعلم كل شىء.. لن تصطدم بهذا الكرسى الذى يلثم المنضدة.. لن تأخذها دهشة هذه الصورة العارية التى تواجه كل والج.. لن يأخذها المصباح الأحمر المصلوب بالغرفة الوحيدة والتى لفظتها الردهة إلى العمق.. أغلق الباب تماماً كالمرة الأولى..

فأجاها..

- لم يكن هناك موعد بيننا.

- موعدنا متواصل..

- قد أكون مشغولاً..

- بغيري(؟!).

ضحك ضحكة شاذة..

- نعم..

حاولت أن تتمالك ذاتها..

- وأنا(؟!).

- ماذا تقصدين؟.

- انها ليست المرة الأولى التى احضر فيها إلى هنا.

- كانت الأولى.. واقعية.. جميلة.

- انت الآن تعرف لماذا جئت وماذا حدث..

- انصحك الا تتحدثين فى هذا الأمر.. كان الأمر مجرد تسلية.

- أتسمى شرفى تسلية؟

- شرفك(؟!!) شرفك لم يتأثر.. والذين يريدون الزواج من جميلات كثيرون وأنت تعلمين أن زيارة واحدة إلى صديقى الجرّاح سيعيدك سيرتك الأولى..

- إذن كان أمر الزواج وهماً..

- صدقينى.. كل شىء وهم.

- إنه عار.. عار.

- عار(؟!) واى شىء فى هذا العالم لا يوصف بالعار (؟!!) كل شىء عار.. الافلاس عار.. الجوع عار.. الفشل عار وكل عالمنا مفلس وجائع وفاشل.. ماذا يبقى لنا كى نحافظ عليه(؟!) نحن فى عالم كلمات.. القتل باسم الحرية والعدل.. السرقة من أجل إعادة توزيع الثروات.. الكذب بحجة القضايا العادلة.. كل شىء ذاب وكذاب. وفى النهاية بقينا جميعاً أنا وأنت ويجب أن نعيش كما نريد..

- وهل كان ذنبى أننى أحببتك ووثقت بك؟

- الخطأ أن تثقى بأحد.. أى تعاسة أن يثق فرد بآخر.. ثم ها أنت تعترفين أنك تحبينى وهذا هو الحب الذى كنت تريدينه..

- هل هذا هو الحب؟

- هذا ما أعرفه من حب وهذا ما لا تريدين الاعتراف به..

- اسكت..

- لماذا تخجلين يا ابنة افلاطون.. كانت كلماتك تستجدنى ودموعك تنهشك.. حتى الدموع مزيفة(؟!!) ماذا بقى إذن لتقولين عن الشرف(؟!) لقد اعتصرت فيك كل ما اعرفه من شرف وعندما غربت عن هذا المكان ودعتُ كل آمالى أن أجد الشرف فى هذا العالم الوضيع فحتى انت سقطت. دارت بها أركان الكون.. هتفت والدموع تغرق حنجرتها..

- إننى أحبك..

- كان يجب أن تقاومينى.. لا.. أنت تقتلينى.. كنت سأموت ولكن كنت سأسترد ثقتى المكسورة فى هذا العالم الوضيع..

- وضميرك(؟!).

- مات منذ أن جلدنى الجوع فارتشيت.. منذ أن تصدعت

أحلامى حلماً تلو الآخر.. لقد أصبحت كل حياتى ذاك العار الذى تحدثنى عنه.. لا بل قولى ان حياتى أضحت الحرام..

- ولماذا تصر أن تُدفن بها؟

- أصر؟ أننى مقيد بها.. أين وكيف ومتى أذهب؟ أسئلة جحيمية لا فرار منها.. ضاع كل شىء..

- أنت لا تريد أن تفعل شيئاً.. لا تريد ان تبدأ أحلامك من الدرجة الأولى تريدها من القمة..

- كل من حولى لهم أبراج فى كل مكان وفى لمح البصر.. هذه الأبراج على الأرض وأساسها كلها واحد الباب الخلفى الذى لم استطع الوصول إليه.

- أنت فاشل..

- (ضاحكا) نعم.. هذه هى الحقيقة الكبرى فى الحياة ورغم ذلك فالفاشل يضع أمامك الحقيقة والاختيار إما أن تلقى بذاتك بداخلى أو تخرجى إلى الأبد من هنا.

- دعنا نودع كل شىء ونبدأ من جديد.

- لا.. أنا هكذا ولن اتغير..

انهارت تماماً.. هربت منها كل الكلمات.. تأكدت من الحقيقة

المؤلمة.. فقد عاشت الوهم بكل حذافيره وأعطت نفسها إلى ضائع تحت مسميات من صنعها.. حدجته بنظرة فلم تجده إلا والشهوة تحرق عينيه.. تلّوى فى اتجاهها يصدر فحيحاً غريباً من نظرات وقحة.. أثارتها هذه النظرة التى تعبد جسدها فأثارت حبها له.. آلمها أن يكون ذاك منبع حبها(؟!!).

الثوانى كانت تقرر إما السقوط الأبدى أو بداية نور فى حياتها.. كل خطوة منه كانت تستدعى ذكرياتها وهى تتقلب فى فراشه ولكنها كانت ذكريات ممزوجة بصوت أبيها.. أبوها الذى لا تعتقد انه يستحق منها هذا العار.. وبدعاء أمها التى علت زغاريدها أركان الدارعندما نضجت بطمثها الأول.. وبصراخ أخيها مانعاً أصحابه من الدار حفاظاً عليها..

توغل إليها فيها.. اعتصر منكبيها.. هوت أنيابه على جيدها.. كانت الغيبوبة مازالت تحتويها تمزج دغدغة الرغبة بتأوه الضمير فتمادت فى الذكرى.. تذكرت ربها فسرت قشعريرة انتباه فى خلاياها..

لم يكن صدفة ان تتذكر ربها فجدران الدار مزدانة بآيات القرآن وفى ركن عتيق من الدار أدام أبوها موطناً للصلاة وفى كل زوال جمعة تهاجر إلى المسجد مع العائلة..

كان ذاك أصداء الذكرى التى أذهبت قشعريرة الرغبة وآتت بقشعريرة الإبصار..

ساعتها دفعت الهواء كالوليد بيديها تضرب فى كل ركن.. أصطدمت بالرف الهزيل على الجدار الرقيع.. تهاوى.. كان ذلك كفيلاً بأن يعطيها فرصة للانفلات.. عندما هام يبحث عنها كالثور الهائج وقفت فى ثبات رهيب.. لم تهرب.. وعندما دخل مجالها صفعته صفعة شديدة.. فأوقفته مذهولا..

مرت لحظة كدهر.. تربصت رد فعله فهى تعرفه مجنوناً.. عندما هَمّ بها مرة أخرى بادرته فى صوت ثائر:

- لن أسقط مرة أخرى.. أنت لم يعد لك شيئاً تعيش من أجله أما أنا فلى.. مازال الله وسيزال موجوداً.. سيغفر لى سقطتى البشعة معك.. سأصلى له ألف فجراً حتى يغفر لى.. حتى يهيّئ لى من أمرى رشداً.. ليهبنى الحياة من جديد.. والقوة من الجديد.. والأمل من جديد..

سارت فى خطوات شديدة الثبات.. فتحت الباب.. خرجت.. لم تغلق الباب.. ودعها بنظرة غريبة.. مزيج من رغبة وحقد.. وتشجيع..

* * *

(٤)

ثلاث قلوب.. وطريق واحدة

فتحت الباب فى هدوء.. ملامحها المضطربة كانت على وشك الانهيار.. الثوانى تحولت إلى دهر.. تدافعت الأسئلة الى عينيها..

ماذا لو رآه أحد يدخل شقتى فى هذا الليل؟..

نعم ذلك..

كانت تريد أن تراه.. ان تحدق فى عينيه ما شاءت.. أن تحتضنه..

عندما فُتح الباب كانت عيناه تعرف طريقها إلى عينيها..

ولج فى سرعة دون ان ينتظر منها كلمة..

أسرعت لتغلق الفم المفتوح.. فاصدر صريراً رغماً عنها..

كانت دقات الساعة تدق طبول الحرب.. وجهه يتجمد فى حرارة.. الكلمات على لسانه يريد ان يقولها..

جلس فى هدوء.. وجلست..

وبعد فترة صمت جاء صوتها من أعماق بئر جاف..

- ماذا تريد؟

أدار وجهه إليها فى بطء غريب.. ولم يجب..

أعادت سؤالها فى رغبة حارة..

أخيراً جاءها الرد.. كنت تعلمين اننى سأجئ إلى هنا فى أى ليلة.. وتعرفين لماذا ساحضر..

أريد أنا أن أسأل.. ماذا تريدين بهذا السؤال؟

غاص وجهها بالأرض.. تلتها رغماً عنها.. بصحبة دمعة حارة.. وهى..؟

- لا تعلم.. عننا شىء..

دفنت وجهها بين كفيها.. انها فضيحة.. فضيحة..

ثار عليها..

- أتسمين الحب فضيحة.. اننى أحبك..

- يجب أن تحبها هى..

- عندما ولجت إلى داركما.. كنت أريدها هى.. ولكن بالتدريج أحببتك أنت..

- إنها ابنتى.. هل سمعت هذه الكلمة جيداً.. انها ابنتى..

اقترب منها فى بطء.. رفع وجهها إليه..

- لتكن ابنتك.. ولكنى احبك أنت.. لقد تزوجتها اعتقاداً اننى

سأنساك.. ولكن ما حدث هو العكس.. كنت أرى وجهك فى وجهها.. أرى عينيك فى عينيها.. حتى صوتها.. كان صوتك..

أسألك الرحمة.. هذا حقى.. أن ترحمى حبى لك..

- ولكن هذا الحب حرام.. انه سيدمرنى وسيدمر ابنتى.. هل تعلم ما معنى أن أحبك؟..

- أنت تحبينى..

- هل تعلم ما تقوله؟.. انه يؤدى إلى تدمير قلبى.. سحق أمومتى.. يجب ان نكافح هذا الحب.. ان نطرده من قلبينا..

- حاولت.. وفشلت..

- يجب أن نتجنب رؤية أحدنا للآخر..

- حاولنا.. وها نحن نلتقى..

- اخرج.. أرجوك.. لا تعد إلى هنا مرة أخرى..

- أنت تطلبى المستحيل.. لقد عرفت عنك كل شىء.. كم زوجتى طيبة.. انى بعد ان عرفت حياتك لم أعد استطيع أن أتركك..

انفجرت فى بكائها.. حاولت أن تقتل هذه الدموع فى جوفها.. تلك الدموع التى تذيب مقاومتها له.. التى تدفعها دفعاً إلى صدره..

لقد مات زوجها.. ايان ان كان عمرها سبعة عشرة عاماً فى

الحرب ومع الدموع كانت الابنة تتلقى أنفاسها..

كانت انثاها تصرخ بداخلها.. لانك مازلت فى السابعة والثلاثين.. عمرك لم ينته بعد.. لقد عشت من أجل ابنتك عشرين عاماً.. والآن يجب ان تطلقى العنان لقلبك.. ذلك القلب الذى لم يأنس لرجل الا عدة أسابيع..

لقد ضحيت بما فيه الكفاية.. والآ يجب على ابنتك ان تحذو حذوك.. ان تضحى هى لك..

وكم صرخت فى تلك الانثى المتمردة.. ولكنها لم ترحمها.. كانت تزيد صدرها ناراً.. وقلبها خفقاً.. تدفعها الى ذلك المجهول فى عالم النساء المسمى حضن الرجل..

كم كانت هذه الانثى ذكية اذ أثارت لديها أعز ما تملكه المرأة (كيف تحرمين نفسك من الرجل الوحيد الذى أحبك؟ أنت مازلت شابة.. لان قلبك يعرف معنى الحب.. لان عينيك قد مرت على حناياه وان عيناه قد مرت على كل جزء.. بك)..

كانت دموعها تهطل لتعلن فى كل دمعة انها تريد هذا الرجل.. وهكذا تصاعدت نجوى الانثى فى داخلها حتى كادت تتملك عقلها.. فأنشبت مزيداً من النار فى قلبها..

(لقد اختارك أنت لا هي)..

- ولكنها ابنتى.. هل سمعت هذه الكلمة جيدا؟.

فتعود فى قوة (لقد أختارك أنت لا هى.. أرادك أنت لا هى.. قلبك الجاف كم تمنى فى ليالى الشتاء الطويلة بسمة رجل.. هل تذكرين هذه الليالى؟.

هل تذكرين الوحدة القاسية والصبر الطويل والرغبة المبتورة؟ إن كنت نسيت فلم أنس أنا..

لقد آن الآوان لكى تستمتعى بهذه الحياة.. لكى تنعمين بصحبة رجل.. لكى تعيشين كامرأة)..

وكأن هذه الكلمات قد أحرقت كل مقاومة لها.. فرفعت وجهها إليه فى ضعف..

اقتنص ملامحها بعينى ملهوف فهرع إليها.. تهاوت بين يديه..

كانت تعلم انها لو سمحت لنفسها بان تجاهره بالحب فلن يقف شىء أمامها بعد ذلك.. ستنهار انهياراً عنيفاً انهيار أقرب إلى السقوط البشع..

هكذا عندما تهاوت بين يديه كانت تبكى بكاءً من نوع آخر.. بكاء الرغبة والتمنع..

استقرت رأسها إلى منكبه.. لم تر وجهه فى ذلك الوقت..

- هل كان يدمع هو الآخر؟.. نعم.. كان يدمع.. تخيل زوجته فى هذه اللحظة تدخل الدار..

تدافع سؤال واحد إلى ضميره.. ماذا سأقول لها؟.

تسارعت مشاعر الاحتقار الى نفسه.. لم يكن هذا السؤال هو الأول بل تسارعت كل الأسئلة الجحيمية بعده فقد شن ضميره الهجوم العاصف..

(ماذا تفعل؟).. اغمض عينيه حتى يهرب من الضمير وكنه لوحق..

(هل أنت صاحب الضمير النقى الذى تدعى..؟ هل أنت الذى تصلى؟).

كم جاءت هذه الكلمة كالصاعقة.. فدفن وجهه بشعرها الحريرى..

ولكن ذلك لم يوقف طوفان صدره..

(ها أنت تحتضنها.. هل اختفت الآن خفقات قلبك.. هل استكانت رعشة جسدك.. كم انت حقير منافق.. تذكر إن هذه الاحضان كانت أيضاً لزوجتك.. وهى ابنة هذه الحبيبة وكم قلت لها كلام غرام.. ارأيت انها أشعار.. مجرد اشعار تقولها كلما رغبت فى حضن نسائي)..

صرخ.. ليست هذه الحقيقة..

(ما هى إذن الحقيقة)..

- إننى احبها..

(والابنة.. الزوجة.. ذات القلب الأخضر)..

- لا تسألنى عنها..

(هى الأخرى تحبك.. كم ضحت فى سبيلك بكل شىء.. تركت دراستها الجامعية من أجل أن تكمل أنت رسالة الدكتوراه.. بالطبع أن تتناسى كل ذلك).

ولم يجد ما يجيب عنه.. فاستطرد يهتبل الفرصة..

(تتناسى أيضاً رغبتها المتواصلة لانجاب الابن الذى تحلم به اعرف انك ستقول انه لم يجىء الى الآن.. ولكن لا تنسى انها تحاول.. تحاول بقدر كل ما تحمله انتى فى ذلك)..

وتمر لحظة عنيفة.. يصرخ فيها الحبيب.

- ماذا تريد الآن؟..

(أن تعيش لزوجتك.. وفقط..).

ساعتها أحس بدموعها الدافئة تهوى على وجهه.. كان يود ان يبقيها ولكنها دفعته عنها..

لقد عاشت أماً أكثر من ثمانية عشر عاماً وعاشت حبيبه عاماً ونصف..

انها الأم ويجب ان تسحق قلبها من أجل الابنة.. يجب ان تحطم رغباتها.. كعادتها - طوال العشرين عاماً..

ولقد تفهم كل ذلك.. كانت دفعة يديها له دفعة الضمير لا دفعة الحبيب.. اراحته هذه الدفعة بعض الشيء فقد كان يود ان يشعر انه مرفوض كان يود ان تهينه.. ان تطرده فى قسوة..

لقد سلّم.. احب بأقصى ما يحب الرجل.. وقد جاء من أجل شيء واحد ان يعرف كيف تحبه هذه المحرمة عليه؟..

لقد طعنته الاجابة.. كانت دموعها الخبيثة تهمس فى أذنيه.. كانت يداها تتشبث فى عنف وترفض فى فزع..

التقت العيون كلها تتساءل.. ما الحل؟.. ماذا نفعل؟.. هل تلتقى شفاتنا فى سقوط مريع متعطش رغم الضمير والأمومة.. أم يذهب إلى الأبد؟

إنها ساكنة.. لا تتحرك.. عيناها تقولها.. لقد امتلك قلبى..

كلاهما قد اعتمد على الآخر فى القرار..

إذن فهى اللحظة الفاصلة.. دقات الساعة تدق.. الخفقان يكتسح القلوب.. اللقاء يطحن أى شيء فى سبيله..

حدث ما لم يكن يتوقعاه.. انهارت كل مقاومة.. انه لم يكن قادم من أجل هذا.. لقد.. حضر ليُرفض..

وهى لم تستقبله لهذا.. لقد استقبلته لتطمئن انه لا يجبر..

كم كانت المفاجأة قاسية عليهما ففى هذه اللحظة عرف ان ماضيه الضميرى كله لم يصمد أمام انفاسها..

وأن أمومتها.. سنواتها الطويلة الغابرة.. لم تصمد أمام أعماقها التى تشوقت دائما إلى ذلك المجهول المسمى الرجل..

إذن ليكن ما يكون..

تقترب الشفاة.. والحواجز تنهدم.. الضمائر تصرخ والقلوب تنتفض..

تتداخل الأنفاس لتعصف بالماضى وكل شىء..

حتى إذا ما التصقت الشفاة وتمكنت الأيادى من مكامنها.. كانت المفاجأة القاسية..

كان المفتاح يعمل فى جُحره.. وفتح الباب..

كان لابد من لحظات حتى يستفيق الداخل والمتواجد من هول الواقع..

اصطدمت الداخلة بالضوء الخافت.. والصمت الرهيب الذى يهره دقات الساعة..

دققت زوجة الحبيب بالمشهد العاصف وقد ترامى إلى مسامعها الصوت الذى تعرفه جيداً..

اغلقت الباب وأصدرت صرخة مكتومة كانت كفيلة بأن تقضى على الغيبوبة التى احتوتهما..

زاغت الأبصار.. اكتسح الصمت كل شىء.. ترامى إلى سمعهما نحيب الابنة.. كان بكائها بكاء لانزيف.. نزيف للحب البنوة التضحية الاحلام.. الحياة.. كل شىء..

تقدم الرجل ليحتوى الموضوع ولكنها لاحقته من خلف أستار الدموع بنظرة عنيفة جعلته يتوارى خوفاً وهلعاً..

أما الأم فقد انزوت فى احدى الاركان تتمنى الموت..

كان طوفان الثورة فى الابنة أكبر من أى كلام.. تساءلت ماذا حتى تستطيع أن تقول؟..

إن ما رأته كان كل قواميس الأرض.. كان الخيانة من أعظم شىء فى هذه الدنيا.. خيانة أمومة مع زوج.. زوج كان لها دعامة حياتها.. كان لها كل الحب.. بل إنها كانت تعتقد انه هو مصدر كل الحب وحثيثاً أخفق قلبها.. لقد نال منها حتى فى صمته.. لقد اعترفت من قبل آلاف المرات لنفسها انه كل قلبها ولا تستطيع أن

حتى تفكر فى أن تعيش بدونه.. فى البداية استنكرت الموقف.. كيف تدافع عن حبها أو عن حبه فى وسط هذا الخضم من التعاسة..

وفى المقابل ثارت الابنة.. كان يجب أن تصرعه.. لقد اعطته كل شىء.. اعطته الحب والقلب والجمال.. اعطته كل ما تدخره من كبرياء.. ولكنه تركها ولمن؟ لأمها.. يا للفاجعة..

لقد طالبتها الاثنى بهجوم بشع يطعن هذا الرجل فى كبريائه واحترامه وهذه المرأة فى اعتزازها بماضيها..

وعندما تمالكت نفسها أخذت تسدد عينيها إلى أمها فاصطدمت بشىء ما متكور مذعور فى أحد الأركان.. ساعتها سقطت جبال فى نهرها.. فأحدث ذلك انقباضاً شديداً لها كان صوت بكاء الأم رهيباً.. بعث بقلبها الألم.. كان صوت يخاف الابنة.. والابنة كانت دائما تخاف الأم..

تساءلت هل هذا الشىء التعس الذى ملأنى شرفاً وتعليماً يستحق منى أن أقتل ما به من غيرة فى ذلك الوقت؟

وعلى الفور تبادرت إليها ذكريات الليالى الطويلة التى عاشت فيها بأحضان أمها.. باحضان هذا الشىء المذعور الباكى..

تذكرت عدد القبلات التى قبلتها لها أمها.. كم مرة مشطت

لها شعرها الكستنائى.. كم مرة ودعتها من الشباك.. عندما تذهب الى المدرسة كم مرة ابتسمت لها وكم مرة أكلت منها حتى تأكل المسكينة الصغيرة لتقوى العظام على المسير..

لا يعرف كيف ولماذا فتح عليها هذا الباب الجحيمى.. التذكر لكل تلك الحياة السابقة..

هدأت نظرتها.. حينئذن أدركت ذلك الشىء الذى تناسته فى خضم الثورة.. لقد تذكرت أن أمها (أنثي) مثلها..

تذكرت ماذا تعنى كلمة انثى من سنوات ما قبل الزواج..

وكم استدركت ماضيها الذى عشق الرجل بصفته الفارس الى الحياة الجديدة التى تتمناها كل أنثى..

تذكرت أيضاً فجأة العشرين عاماً من الحرمان وقارنتها بتوهج عاطفتها لزوجها فى شهور ما قبل الزواج..

بل تذكرت القبلات التى اقتنصتها منه وفى نفس مكانهما عندما كانت تنشغل الأم بأمر الشاى المزعوم..

انها حقاً للحظة طويلة تلك اللحظة التى استدركت فيها حياتها السابقة.. ساعتها قالت كلمة واحدة فى نفسها لتردع أنثاها.. (إنها أمي)..

بل تطور الأمر إلى ما هو أكثر من ذلك.. لقد كانت تفكر فى

شيء محدد..

لقد عانت الأم.. سنوات طويلة من أجل أن تقف هى على قدميها والآن.. يجب أن تضحى مثلها.. يجب ان تترك لها هذا (الرجل) هذا الرجل الذى اخترق كل الحواجز حتى وصل إلى قلبها وإلى شفتيها وهكذا يكون وصل إلى أعماقها وقد أصبح من الصعب انتزاعه منها..

وهكذا علمت كم من الآلام تحملتها هذه الأم لانها تعلم تماماً مدى حبها لها.. ذلك الحب الذى جعلها تضحى بكل شيء فى سبيلها..

وما أن وصلت إلى هذا الشعور حتى ضاع مرة أخرى فى ثورة نفسها فقد نازعها حبها فى هذا الزواج وطالبها قلبها بالاحتفاظ به وصرعت أنثاها كل هذا الغثاء وطالبتها بأن تثأر..

عندها شُلت تماماً كل وسائل الادراك والتعبير.. تحجرت عيناها تجمدت الدموع..

أخيراً تهادت سفينتها الى حل واحد.. لقد أيقنت ان هذا الرجل لم يعد لها أو لن يكون لها..

إذن فهو الانسحاب من كل هذا.. قررت أن تضع كل حيرتها وقرارها على وجهها المتجهم ثم تواجه زوجها وحبيبها..

وبالفعل حاولت.. حركت وجهها اليه وبصعوبة اطلقت عيناها

إلى عينيه..

أما هو فقد حاول ان يقاوم نظرتها حتى لا تكون نظرة احتقار لقد ايقنت إذن أن الكلام ليس بذى قيمة وانه معروف معرفة البشر للشمس.. اذن لتكن نظرة بائسة حبيسة.. لعينين حزينتين..

واستقبل النظرة ففهمها على الفور.. حاول ان يتكلم ولكنها امتعضت فتوقف الكلام فى حلقه..

مرت لحظات صمت غريبة أخرى.. قام وقد أيقن أنه الطلاق.. إلا أن رغبته مارست مزيد من الالحاح فنظر إلى حبيبته التى نكست رأسها فى مذلة.. وأتته نظرتها باليقين إليه.. لقد شُرخت هذه المرأة والحب بكل ما فيه من استقرار ومتعة لن يهبها السعادة لان ابنتها عمرها كله ستفقدها..

إذن فقد انتهى كل شىء.. هكذا قالها للاثنتين..

تقدم إلى الخارج فى خطوات بطيئة جداً.. ارهف سمعه حتى يسمع الكلمة التى يتوق إليها من أى منهما.. ارجع..

فلو قالتها الحبيبة سيكون فاز بحب العمر المسكور ولو قالتها الزوجة سيكون فقط لها وطوال العمر كقربان حتى تسامحه.. وكم يحتقر نفسه لانه أحزن هذه الطفلة البريئة.. الا ان أحداً لم يتكلم..

فخرج عندها لفحت وجهه رياح باردة طاردت البقية الباقية من رغبته..

هبط الى الشارع فتحطم الحاجز الذى كان يخاف ان يتحطم.. فلم يتركه ضميره يهنأ بنعمة الهدوء.. فلاحقه..

(أمازلت تمشى تحت السماء؟)..

اغمض عينيه فى حزن فقد أدرك انه صاحب نظرية لا موقف.. وان كل مقاومته قد عصفت بها أنفاس الحبيبة..

تدافعت أسئلته (إذن أين ذلك الرأى الراجح الذى كان يجد فيه الجميع الحلول؟.. بل أين ذلك الوعظ الذى كنت تعظه؟)..

ضغطت عليه الأسئلة حتى اعترف (رغماً عنه) بتلك الحقيقة التى كان ينفيها منذ ان قبل الحبيبة.. اعترف بانه لم يعرف الله حتى الآن.. فقد نسى الله وتناساه فى مقابل ان يتمتع بهذه القبلة الرهيبة والتى من ورائها سقوط مريع.. سحر فى ابتسامة عجيبة وتساءل.. ماذا لو لم تحضر لتزور امها فى ذلك الوقت؟..

لقد خرج من هذه الدار الساخنة الى الأبد ولكن تلك الاهانة الفظيعة التى أهانها له ضميره جعلته يتحداه ويقرر أن خروجه لهذه الطريق لن يكون مجرد خروج ولكن سيكون الخروج بداية لحياة جديدة يكتشف فيها ما خفى عن نفسه..

أما الابنة فقد سارعت إلى أمها المذعورة.. فهربت الأم بالوقوف وأولتها ظهرها.. كانت تتوقع كل شيء لانها كانت تعلم مدى حب الابنة لزوجها.. وكانت تتمالك نفسها شيئاً فشيئاً لتقو لها ان الخطيئة لم تحدث بينها وبين زوجها وان عليها ان تطمئن إلى ذلك وانها مازلت تستطيع ان تصلح بينهما ثم تنسحب الى اقصى الأراضى بعيداً عنهما..

وهكذا انتظرت الأم ماذا ستفعل الابنة..

ولكن الابنة خالفت كل توقعاتها.. لقد اتت لانها كانت تعلم أن شيئاً ما لا تستريح له فى عينى زوجها وعينى أمها..

أتت لتتأكد من شيء أو تنفى شيئاً.. وربما كان ذلك هو ما خفف عنها الصدمة وبرر صمتها المبهم..

انها انثى لماحة.. وقد أدركت ونفت كل ذلك بشراسة الذى يخاف المواجهة..

ثم أنها تدرك تماماً أن الخطيئة لم تحدث بينها وبين رجلها لانها كما علمت بالنظرة والقلق والشوق كانت ستعلم بالخطيئة دون أدنى جهد خاصة ان الخطيئة مع أمها المهاجرة للرجل منذ عشرين عاماً ستكون واضحة أمامها تماماً..

لقد كان يعمل عقلها بصراحة وسرعة الانثى الملهوفة على الاستقرار وكشف حقيقة تتعرض لأدق تفاصيل حياتها..

الآن يجب عليها ان تغفر هذه القبلة العمياء خاصة ان صاحبها قد هاجر الجميع.. وان تفتح صدرها لامها لتعيد اليها قلبها المشروخ المتحطم.. نعم.. يجب عليها ان تنقذ أمها من هذا الهلاك الذى يتربص بها..

وان تقنعها أنها تتناسى كل هذا.. وليعيشا معاً مرة أخرى بذاكرة تطرد عاماً ونصف من الصراع وتستضئ بثمانية عشر عاماً من الأمومة..

لقد فعلت الابنة صاحبة القلب الأخضر شيئاً واحداً..

أحاطت الأم بيديها الناعمتين.. لم تصدق الأم ما يحدث.. استدارت.. تلاقت العيون.. كانت عيون الابنة صافية لا يكدرها حب ولا غضب ولا انتقام.. فخفضت تلك النظرة المذبوحة فى عينى الأم.. فصار الطريق مفتوحاً إلى تعانق الصدور..

كم كان هذا الحضن مختلفاً للأم عن حضن الرجل.. تمتعت بالرجل ولكنه مزقها..

أما هذا.. فما أجمله.. إنه حضن نقى طاهر محب.. أعاد إليها

قلبها.. وذاهتا واحترامها وأمومتها..

لقد كان حضناً غريباً.. كانهما اول مرة يلتقيان وبالفعل كان هذا أول حضن يجمعهما فى الحياة بعد عام ونصف من الفراق.. كان أول حضن فى حياة جديدة لهما أيضاً.. كابنة وأم..

* * *

(٥)
منـــــال

كانت رحلة عودته إلى الحارة تحمل دائماً التساؤل.. (ماذا عنها؟.. هل هذا صحيح؟.. هل يمكن أن يحدث؟..).. ثم يردد فى ذهول (إنه الجنون عينه).. وكما توقع.. رآها عندما رفع عينيه إلى شباكها.. كان شعرها المجدول ورداء المدرسة يقولون الكثير.. ترك كل هذا حدّق بعينيها السوداوين.. أعاد وضع عويناته إلى أصلها..

تهدجت أنفاسه.. (إنها تنظر إليّ فى غيظ.. هذه المجنونة غير عادية).. لم تكن الأزمة قد انتهت بل إن القادمة هى الهامة.. فقد كان عليه كى يصل إلى شقته أن يمر من أمام بابها.. صعد السلالم الرخامية فى برود.. تلهبه الأسئلة (إنها لا تتورع أن تفعل أى شىء.. إنها صبية مجنونة.. أقسم بالله مجنونة).. حدث ما توقعه.. ما أن كاد يمر أمام الباب حتى فُتح فجأة.. تقدمت إليه فى ثبات وهى

تنظر إليه فى حنق.. غرست راحتيها فى جنبيها كأنها تسخر منه.. تجمد الدم فى عروقه.. ماذا لو رآها أحد الآن وهى تنظر إليه؟.. ماذا لو خرج أخوها وصديقه فى نفس الوقت؟. ستكون كارثة لا شك.. بل ماذا لو رأتهما إحدى النمامات؟ ضغط عويناته فى فزع وهرول إلى شقته.. قبل ان يلج داخلها وصل صوت غلق الباب فى عنف.. أسند ظهره إلى شقا الباب المضمومين.. أطلق الصعداء.. تقدم فى خطوات بطيئة إلى شباكه الموارب.. دس عينيه فى الفراغ.. بحث فى لهفة عنها.. عن حبيبة العُمر.. ما إن وقعت عيناه عليها وهى تدور فى دارها خلف أولادها حتى صرعه الخجل..ارتدت الأسئلة من ضميره إلى قلبه.. (هل هذه سلوكيات محاسب محترم؟!.. بل هل هذه سلوكيات رجل محترم؟.. أين حقوق الجار؟ أين.. وأين؟).. رد بصره إلى الداخل وهو غاضب إنه دائماً يقول ذلك ولكن بصره يمتد عبر الشباك إلى حبيبته الأولى والأخيرة.. حبيبته التى لم يستطع أن يكرهها.. رغم كل ما فعلت به.. فقد تركته دون أدنى اعتذار وتزوجت بالمقاول ثم ندمت بعد ذلك فى حين لا ينفع فيه الندم.. ومنذ سنوات سبع وهو يتلصص إليها عبر الشباك الموارب عسى ان

يراها ويرجع قلبه إلى صدره المتهدج مرة أخرى..

ارتمى فى أحضان سريره.. ابتسم فى سخرية.. فقد تذكر هذه الصبية المجنونة.. ابنة الثمانية عشر ربيعاً.. تساءل فى غرور الرجل (هل تحبنى؟) خلع العوينات وهو يتمتم.. (نعم.. انها مفتونة بي) ضحك.. بقوة.. فقد أفاقه الجوع.. من كل متاهاته.. اتجه مهرولاً إلى المطبخ.. غسل الأطباق.. وضعها على رفها المعتاد.. سخن الطعام.. كان عليه ان ينجز كل هذا بسرعة لان موعداً قد ضربه كاد ان يمر.. خلع حلته السوداء.. رماها إلى السرير.. فتح فاه الدولاب.. ارتدى رداءً خفيفاً يناسب القهوة.. كان يريد تأجيل الخطوة التعيسة فى حياته.. مواجهة المرآة.. ولكنه فى النهاية كان يجب أن يفعلها.. اصطدمت عيناه بشعره الأبيض.. مشّطه على عجل وضيق.. فقد كان يذكره بعمره الذى يكاد ان يمر دون زواج.. ضغط عويناته.. اغلق الدولاب فى قوة..خرج.. بعد ان لحظ الصبية المجنونة.. بعكس عودته فى الظهيرة كانت عودته فى الليل جميلة.. لانه سيكون بالحارة بمفرده وساعتها سينهل من عينى المجنونة.. رآها كالعادة.. وكما يجب ان يكون.. سار فى كبرياء وهدوء.. كانت

نفسه تتوق إلى الباب المفتوح ونظرتها الحانقة ويديها المنتظرتين.. راى شبحها بشعرها الهمجى من خلف الزجاج.. إلا أن الباب لم يفتح.. حنقت نفسه عليها.. لقد اعتاد ان تعيش عيناها تحت قدميه وأن تعيش عيناه تحت قدمى حبيبته.. كأنها تُعّوض غروره المسفوح هناك.. أرهف السمع اثناء صعوده ولكن بابا لم يُفتح.. ولم يغلق.. أسند رأسه إلى الكرسى العتيق المترامى فى ردهته الواسعة.. كان الملل يتدافع إليه.. والسؤال الجحيمى يحرقه.. كل ليلة تمر لا تتكرر.. وكل ليلة بلا انثى سجن مر..

ضغط شفتيه فى ألم.. كانت حياته كلها تضغط على جفونه من أجل أن يبكى.. أمه التى ادعى انه يعيش من اجلها ماتت منذ عشر سنوات.. مديحة التى أحبها لم يستطع أن يستجوبها.. ان يصفعها أن يتركها بعد زواجها.. بل حتى لم يستطع أن.. يناسها.. رغبته التى يهملها أصبحت غير قابلة للسيطرة لان الوحدة تؤججها.. حتى سالم مديره المباشر فى العمل يكدس أمامه كل السجلات دون ان يرفع صوته محتجاً.. انه يكتفى فى كل مرة.. فى كل مرحلة بان يهذى بكلمات فى نفسه.. بان يكتب معارضته.. ويبلع الاهانة فوق

الاهانة.. خلع عويناته فى الم.. حدق بعينيه الرماديتين فى لاشيئه.. كان يحاول ان يتذكر أكثر.. أن يجب على سؤال مهين.. (لماذا أنا هكذا؟) وسرعان ما اتته الاجابة.. تذكر صفعات الأب.. هرولته من أبيه الداخل إلى نفس هذه الشقة.. اختبائه منه وراء الكرسى الكبير الماكث هو فيه الآن.. تذكر عصا أستاذه فى مدرسته.. لطالما ألهب أصابعه بالعصا الجافة.. تذكر دموعه التى لطالما أزرفها على باب الفصل.. وعلى مهده الوحيد.. تذكر حرمانه من حضن امه عندما يأتى الأب.. وحنان أمه له.. حضنها لإياه.. هتف هنا (أمى...).. تذكر القسم الذى اطلقه بعد موت أبيه.. لقد أقسم ان يعيش من أجل أمه.. امتعض فقد فاجأه صدره بسخرية مريرة.. كان يعرف تماماً انه مهما راوغ بشراً فلن يراوغ ذاته لقد ايقن ان امه كانت حضناً وحولها هو الى قبر من أجل أن يدفن نفسه به.. أراد ان يحول امه إلى عذر يبتعد به عن الناس وإلى طوق يجذبه عن الانثى وإلى دار تغلق بابها عليه فيعيش وحيداً.. ضعيفاً.. برغبته.. فعلتها أمه.. ماتت.. تركته وقد أصبح عليه أن يواجه كل هذا.. ولكنه ارتمى فى أحضان المهاجرة.. لا لشىء الا أنها لن تمثل جديداً يخاف منه أو

موقفاً يجب ان يجتازه.. لم يغير أثاث الدار.. لم يغير القهوة التى اعتادها والعوينات التى يرى بها.. ملابسه التى يرتديها.. سيبقى على كل شىء.. كما هو.. والمجنونة التى تريد حبه سيتصدى لها.. انها ستجره الى مواقف غريبة.. انها.. لم يكمل استرساله فقد فاجأته طرقات واهنة على الباب.. مسح قطيرات دموعه.. مر بيديه على وجهه كأنه يزيل تجاعيد الألم.. ثبت عويناته.. سار فى قلق.. (تُرى.. من القادم؟).. فتح الباب.. وجدها أمامه (هى؟!) لم يصدق عينيه.. تمتم فى هلع.. (نعم.. هى.. هي)..

كم كان يتمنى ان تكون مديحة.. لتقبله كما أراد دائماً.. ولكنها لم تكن مديحة.. كانت المجنونة.. دخلت فى سرعة وأغلقت الباب فى حركة واحدة.. سارعته بجمل مستفزة.. (مساء الخير).. استنكر كل ما تفعله فعلت وجهه سحابة غضب.. لم تهتم بالغضب.. ثبتت وشاحها الكبير على كتفيها وصدرها وأخذت تتحدث..

(أعلم أنك تقول عنى الكثير.. ليس من الآن فقط بل منذ سنة كاملة.. منذ أن احترت فى نظاراتى إليك.. وسلوكياتى التى قد تبدو وقحة لك.. ولكن فى البداية يجب أن تعلم).. أدارت وجهها عنه

فجأة.. اكتسحها صمت ثقيل.. حاولت ان تحرك شفتيها.. لسانها.. ولكنها لم تستطع.. ارتمت على مقعده الكبير أخذت تبكى بشدة.. كل ما أبداه هو ملامحه التى تدرجت من الغضب إلى الاندهاش.. دفنت وجهها بين راحتيها.. قالتها فى ضعف رهيب.. (أحبك).. أعقب ذلك سيل من البكاء.. أحنى رأسه فى ألم.. كيف فعل بها ذلك.. كيف أجبرها ان تنزل من فوق عرش الانثى لتنهار أمامه هذا الانهيار(؟!!).. تقدم إليها فى خطوات ثابتة.. ربت على كتفيها..

(منال.. أنت صغيرة)..

لم تدعه يكمل.. بل قامت فى عنف.. (لا تقل هذا الكلام.. اننى احفظه عن ظهر قلب.. انت صغيرة.. انت ابنة الثمانية عشر عاماً.. انت.. كذا وكذا.. لا.. لا.. لا.. اننى منال.. البنت.. الحواء.. المرأة.. اننى التى تحب.. تحبك.. نعم.. تحبك). كادت ان تغتال نوبات الخجل والضعف والكبرياء المتألم ولكنها لم تهتم بالدموع التى خنقت صوتها واستطردت (ولن تتركك أبداً)..

- منال.. اننى فى السادسة والثلاثين.. اننى ضعف عمرك..

- حتى لو كنت فى السبعين.. اننى احبك..

- انها مراهقة وليس حب..

- لا تقل مراهقة.. اياك ان تتلفظ بهذه الكلمة أمامى..

- انها الحقيقة..

- لا.. ان الحقيقة انك لا تحبنى.. ولكن تحب مديحة..

- مديحة.. من؟

- لا تراوغ.. لقد عرفت عنك كل شىء.. لقد كنت تحب مديحة وحتى الآن تحبها..

هل تعلم لماذا؟.. لانك غبى.. لقد تزوجت منذ سبع سنين ولكنك مازلت تعيش تحت انقاض الوهم.. انك ضعيف.. ضعيف..

سقط كلامها كالصاعقة.. تهدجت أنفاسه.. كيف تجرؤ هذه الصبية ان تقول له هذا.. تقدم اليها كوحش.. صفعها فى عنف.. سقطت ارضاً.. دفنت وجهها فى وشاحها الأسود.. بكت من الألم.. ألم الصفعة.. وألم الكبرياء المنهار.. تحرك شىء ما بداخله.. فرك يده فى غضب.. لم يصدق انه هو الذى يفعل هذا.. انه لم يصفع انسانا فى حياته.. بل لم يرفع صوته فى وجه انسان فى حياته.. ركع.. مد يده إليها.. نظرت إليه من خلف شعرها المجنون.. مدت يدها إليه..

مسح بالأخرى دموعها.. سندها إلى حافة الكرسى..

كانت يداها قد انغمست فى يديه.. شعر بحرارتها.. عيناها السوداوان صاحبتا البريق تقول الكثير.. انفها الدقيق الجميل خاجل فوق شفتين مجرمتين.. نظر إليها نظرة المتطهر والرجل فى آن واحد.. وجد بها الانثى التى حُرم منها طوال عمره والتى حلم بها كل ليلة.. ووجد بها الوجه الملائكى .. النظرة الهادئة.. الطهر..

غلبه الرجل.. فاشتعلت شفتاه عيناه.. شعرت بحرارته تفوح فى نظرته.. أرخت.. عينيها إلى الأرض.. كأنها تركت له كل شىء.. اكتسحته رغبة عنيفة فى ان يقبلها.. ولكن هزمته شكوكه الملازمة له.. تساءل فى مرارة.. (هل سيقبلها؟.. هل سيعرف كيف يقبلها؟ هل ستسعدها القبلة.. هل ستغضبها؟).. ولكن رجله الخبيث أهمل كل الأسئلة وضغط على سؤال واحد (هل سيعرف كيف يقبلها؟) خاف من الهزيمة.. انها المرة الأولى التى يلمس فيها امرأة.. لقد ظل يحب مديحة سنوات طويلة دون ان يلمسها.. حتى هذه اللحظة.. قدراته لم تتحمل اكثر من ذلك.. قرر ان يقبلها مهما حدث.. اغمض عينيه وترك رأسه تتحرك فى بطء إليها.. كانت اللحظات سنوات..

ان شفتاها لم تأتيا بعد.. ما كل هذه المسافة(؟!!).. بدأ يستشعر حرارة أنفاسها..

إذن فهو على وشك.. أخيراً أتت بشرتها.. سقطت شفتاه على خدها الأيمن.. تحركت بوجهها بعيداً.. غمس وجهه بوجهها دارت شفتاه اللتان تبحثان عن شفتيها فى رهبة وقلق.. وجدتهما أخيراً.. كانت القبلة.. بعد خمس دقائق تأكد نجاحه.. هربت بوجهها إلى كتفه.. أسندت وجهها إليه.. همست (اننى لم أصعد اليك من أجل ان تصفعنى.. وأقسم أننى لم أصعد من أجل أن تقبلنى.. لقد جئت أصرخ فى برودك فوجدتك ناراً على نارى.. أأركع تحت قدميك؟ أهذا يرضيك؟)..

رد فى صوت لا يعرف من أين يجئ.. صوت ناعم. رجولى.. منتصر.. واثق..

- لا تركعى.. ستهزمينى ان ركعتى..

- إذن ماذا أفعل فى هذا الحب؟.. لقد قاومتك طويلاً.. ولكن شعرك الأبيض المتناثر فوق جبهتك لا يعطينى فرصة لكى أهرب، عويناتك الغبية اللتان ترانى من خلفها، عينان رماديتان، لا تعرفان

الرحمة لا تدعانى أهرب.. وان استطعت ان اهرب قبل دقائق مرت من كل هذا فأين سأهرب من رجولتك الرهيبة التى استشعرتها منذ ثوانى.. وأين سأهرب من هذا الدفء الذى يمزقنى.. اننى أصلى وكل ما أنا فيه الآن يعذب جسدى لا يمتعه.. إننى لن أكون سعيدة بهذا الدفء الا فى عش الزواج.. لا فى عش الشيطان الذى لن أستطيع أن أقاومه وأنا هكذا.. أعرف اننى أذنبت بحضورى الى هنا.. مهما كانت الأسباب.. انا مذنبة.. ولكن اغفر لى.. ولقلبى الذى لا يريد سواك..

- ولكنك لم تتأكدى بعد من عدم حبى لأخرى..

- اننى أحبك وسأتزوجك حتى دون رغبتك انت شخصياً.. لقد تأكدت الآن أنك لا تحب مديحة.. ولا تحب غيرها.. لهذا سأتزوجك مهما حدث..

- أنت متمردة.

رفعت رأسها عنه فى حدة لم يعرف كيف أجلبتها من هذا الحنان.. حدجته بنظرة مزيج من الحب والصرامة.. هتفت..

- لن أتنازل عن حبى لك أبداً.. هذا حقى..

سقطت كلماتها كالصاعقة.. ردد فى نفسه جملتها فى انبهار غريب (هذا حقى؟!!).. (أأكون حقها؟!!)..

- نعم.. انت حقى أنا وفقط.. أنا التى أحببتك.. أنا التى سهرت من أجلك ليالى طويلة.. أنا التى رسمتك فى كل أوراقى.. أنا التى سمعت لك كل الطرب.. بل إن كل الطرب كان لك.. لا تقتلنى بخرافات قد مضت.. لا تقل لى انه السن.. لا تقل لى اننى مراهقة.. لا تقل لى اى عذر لاننى لن أتقبل. منك أى عذر.. انت حبى أنا.. وسأدافع عن هذا الحب فى قلبك بأن أجبرك على أن تحبنى.. سأحاصرك فى كل مكان تذهب إليه. لن أخاف أبى أو أمى أو أخى.. سأنتظرك فى شباكى حتى تحضر مهما تأخرت.. سأكون الهواء حولك حتى أدخل إلى قلبك وإلى كل جسدك.. وإذا تزوجت أخرى سأهب لكما وردة من حزمة ورود ستوضع بقيتها على قبرى.. لان يوم زواجك.. يوم مماتى..

عندما انتهت من كلامها كان الذهول يكتسحه.. تساءل فى خوف (من هذه الفتاة؟.. هل وصل بها جنون الحب الى هذه الحالة العنيفة؟)..

- إنه جنون الحب..

- لا إنه ليس جنون الحب.. انه حقى فى حياتى.. أنت حقى فى حياتى.. أنت حياتى.. ويجب أن أدافع عن حياتى وعن أمن حياتى ضد أى إنسان.. ضدك ان استدعى الأمر ذلك.. يا حبيبى.. ان هذا حق من حقوقى كإنسانة.. ان أدافع عن نفسى.. عن حياتى.. عن حبى.. وأنت.. كل هؤلاء..

* * *

كانت آلامه أكبر من أى احتمال عندما تركته بمفرده بعد أن اتفقا على موعد.. كان كلامه معها هذيان بعد جُملها القاصمة له ولكبريائه دون أن يدرى.. طابق كلامها.. بحرارتها وجرأتها وقوتها.. على واقع حياته وحاضره.. آلمه هذا الفارق الكبير بينه وبينها.. تساءل (هل أنا جدير بها؟) (هل أنا المستكين الضعيف المكبوت أهل لهذه القنبلة المتوجهة؟).. ردد بكل ألم.. (لا..).. سقط رأيه كالصاعقة على تراثه.. اتجه فى سرعة البرق إلى حجرة الضيوف حيث على الجدران كل صور العائلة.. انقض على عصا تشبه عصا أستاذه الفائت وراغ على صورة ابيه حتى تركها

جذاذاً.. لم يكتف بأن يترك الصورة ارضا بل سحقها بقدمه فى عنف.. كان يهذى حينها يردد (انه لم يكن أب.. لم يكن أب.. لم أر منه إلا القسوة.. الجبروت.. لم يأخذنى مرة فى أحضانه.. لم يعطنى مصروفاً إلا بالتبكيت واللمز.. نعم.. نعم.. لم يكن أب).. وعندما أتم انجازه تنبه إلى العصا التى استقرت فى يديه.. نظر إليها فى قسوة.. قسمها فوراً بضربة واحدة إلى قسمين.. ازاحها الى جوار منزوى فى الغرفة.. اطلق الصعداء.. شعر ان ثمة انفراج. شعر أنه يعيش..

اتجه.. كأنه يمسك بتلابيب اللحظة المنتظرة.. إلى حجرة نومه.. حطم باب الدولاب.. مزق عدة حُلل (لن أعيش فى الماضى.. لتذهب حلل أبى إلى الجحيم.. لماذا أحتفظ بها؟.. لابد ان انهى كل شىء).. اصطدمت عيناه عند استدارتها بملابسه.. نظر إليها بتقزز غريب.. ما هذه الألوان القميئة).. ما هذه الياقات الكبيرة الغبية؟.. شدها هى الأخرى وأشبعها تمزيقاً.. نالت منه المواقف.. تهدجت أنفاسه.. القى نفسه بالسرير المعتاد.. داهمته نوبة سعادة مفاجئة.. تُرجمت كضحكة قوية مجلجلة.. فقد تذكر منال.. الفتاة التى أعادت بعثه

من جديد.. الضوء الجديد فى حياته.. الشعلة التى ستهديه وتنير إليه طريقه فى وهج.. لم يخف الآن إعجابه بها.. رغم ان مرارته مازالت عالقة فى ذاته لأن دائرة بعثه لم تتم.. فغداً سيدمر كل مكبوتاته فى العمل.. سيصيح فى وجوه الجميع.. بخاصة مديره الجاهل.. الغبى.. وعندما تذكر منال كان لابد ان يتذكر بذور الثقة التى وهبتها له.. تذكر انهيار رجولته من قبل مع كثيرات.. كانت شفتاه تمتنع عن أى قبلة ولكن كان الماضى مع ساقطات فكان يمنعه طهره من الانحطاط ولكن ضحكاتهن كادت تقتل ثقته فى نفسه.. رنت جملة منال فى اذنه من أعماق رجولته.. وكانت تلك الجملة هى الوحيدة التى يتذكرها كما قيلت بينما يتذكر مضمون.. كل الباقى.. تذكر وهو يعتصر الوسادة بين يديه.. أغمض عينيه (فأين سأهرب من رجولتك الرهيبة التى استشعرتها منذ ثوانى.. وأين سأهرب من هذا الدفء الذى يمزقني).. أطلق زفير حار منطلق من أتون رغبته.. ولكن راحته الوقتية لم تستمر.. ايقن ان منال قد اعادت إليه بقبلتها بذور رجولته.. مع المرأة.. فأين باقى الوجوه؟ وكل الوجوه.. ساعتها ضرب الوسادة فى عنف.. قرر انه لن يعمل الا ما يقرره هو

فى عمله.. انه سيغير من شكل داره بكل ما فيها من أثاث وطلاء.. سيبحث عن أرضه الضائعة فى قريته والتى ورثها عن أمه.. سيقاوم كل الذين أخذوا حقه.. سيذهب من جديد إلى الحائك من اجل تفصيل طراز جديد من الملابس.. سيغير من عويناته الجربانة.. سيحلق شاربه ويعدل تسريحة شعره.. اندفع الى المرآة.. يتعجل رؤية نفسه فى طرازه الجديد الذى يريده.. نظر فى عمق الى ذاته فانتشى.. دارت عيناه على اطراف المرأة.. غُرس بصدره سهم قديم.. كان قد ثبت صورة مديحة على اطراف مرآته.. وفى ثانية واحدة هُدمت سعادته هكذا تأتى الحقائق.. فجأة.. كان يعتقد ان منال قد استقرت فى اعماقه ولكن صورة مديحة جعلت قلبه يخفق عند رؤيتها (كعادته) قبل الليلة.. بل إنه ما أن رآها حتى جرته قدماه إلى شباكه الموارب والموجه الى شباكها عسى ان يراها ولكنها كانت قد غلقّت الأبواب.. طعنته حالته الغير متوقعة.. شعر أنه قد ظلم منال.. بل قاده شعوره إلى احساسه بالمرارة من ذلك البطش الذى يمارسه حب مديحة بداخله.. فقد ظل هذا الحب ثورة بعيدة عن كل تأثير.. وهكذا أصبح هذا الحب.. او هذا التأثير الشىء الذى

ينغص عليه حياته.. انه يعرف انها لا تستحق حبه.. انها تزوجت وتركته.. لم تستطع أن تضمد جرحه عندما اعتذرت له بعد الزواج.. عض على شفتيه متعجبا (هل مازلت أحبها رغماً عنى؟..) ترك هذا للزمن..

* * *

بعد عدة أسابيع لاحظ عدة أشياء أهمها ان شباك مديحة اصبح مفتوحاً لفترة أطول.. ولعله رجّح ان مديحة قد بدأت تنظر من خلف شباكها الموارب هو الآخر.. وكالعادة امتزج شعوره بالألم مع شعوره بالسعادة لاهتمام مديحة المفاجئ.. بل إنه الآن يراها وقد تعمدت ان تنظر إليه أكثر من ذى قبل.. والافرح ذلك الرداء العارى الذى تخرج به إلى الشباك ليلاً.. وتطلق عينيها الى اتجاهه.. حار فى ذلك أشد الحيرة.. ان لها سبعة أعوام لا تنظر إلى شباكه.. ما الذى دهاها لقد اخترقت نظرتهاكل الحواجز وأصابت رغبته المخلصة فى حب منال.. شعر بانه مزور.. فى كل لقاء مع منال يتحدث عن الحب ويصف لها المستقبل وينظر إلى وجهها الملائكى.. ادرك ان قبلتها له كانت لها مفعول السحر فى بدنه.. حاول ان

يقتنص أخريات ولكنها كانت له بالمرصاد.. لم يفز منها حتى بلمسة يدها.. تحير.. ان منال تعيد إليه الطهارة.. ولكن عندما يأتى الليل يواجه مديحة حبه الماضى والحاضر وأحلامه التى مازال يعيش بها كرجل معها.. كان لابد اذن من نهاية لكل هذا.. كان عليه ان يحسم الأمر.. وهكذا أتت الأمور سريعاً دون أن يرتب لها..

* * *

كانت الليلة شديدة البرودة ولكنها كالعادة لم تمنعه من مواربة الشباك.. ساعتها سمع طرقات جذبته من شباكه إلى الردهة كان يعلم انها منال.. تعجب انها لم تفعل ذلك إلا مرة واحدة فقط وظلت تبكى معه من أجلها طويلاً.. ضغط عويناته الجديدة.. هندم سرواله الحرير.. فتح فى هدوء وشوق.. تراجع من هول المفاجأة.. كانت هى.. مديحة.. أغلقت الباب فى حزم...

- مساء الخير..

عقلت المفاجأة لسانه.. ماذا يقول؟.. وماذا لو أن أحداً رآها؟.. إنها متزوجة.. ولابد أن زوجها الآن فى سريره.. كان لابد ان يفكر بسرعة.. ولكنها لاحقته..

- أعرفك جيداً.. زوجى مسافر اليوم.. لم يرنى أحد.. ابناى ينامان.. أعطانى الصيدلى مُنّوم قوى حتى أضمن كل شىء..

- مديحة.. ماذا تضمنين؟

- قل لى.. بصراحة.. ما كل هذه التغيرات؟.. كل شىء بك تغير.. حتى ملابسك وتسريحة شعرك.. حتى عويناتك المقدسة.. هل طفلة.. ستفعل بك كل هذا؟..

- مديحة.. مازلت مذهولاً.. عم تتكلمين؟

تقدمت إليه فى غضب.. اقتربت.. تغرس ملامحها عن كثب لأول مرة منذ ست سنوات.. هى كما كانت.. عيناها البنيان.. شعرها الأشقر.. وجهها المستدير.. شفتاها الشرهتان الغليظتان.. كل شىء فيها كما كان.. تعمدت ان تقترب منه لانها تعلم انها صاحبة تأثير عليه.. تعمدت ان تلفح وجهه بأنفاسها التى طوحتها فى اتجاهه.. قالت فى حزم..

- أنت.. تحب.. منال.. يا للمهزلة.. رجل فى ضعف العمر يحب ابنة الثمانية عشر عاماً..

- من قبل أحببت وهُجرت..

- أنت الذى هجرتنى..

- من قال اننى أحب منال؟

- لا تنكر.. لقد راقبتك عند خروجك ووجدتك تقابلها.. رأيتكما بنفسى.. هل تظن اننى غبية.. ان وقفة البالكون كان لها تبريراً.. وهذا التبرير.. هو الحب..

- أنت مجنونة..

- أنا لست مجنونة.. أنت المجنون..

- وماذا تريدين؟

- أنت ملكى أنا.. ولن أفرط فيك.. اسمعت؟

جلجلت ضحكته.. (ماذا تقولين يا حبيبتى المهاجرة؟.. أنت المجنونة.. لا أنا)..

أدرك برجله الخبيث ان مديحة تغار من منال.. وهكذا بدأ بالانتقام.. اخيراً سينال منها.. سيصفعها فى عنف.. سيركل قلبها كحشرة قذرة.. رغم انه يحبها(؟!!).

امسكت كتفيه فى عنف.. هتفت فى عيون تكاد البكاء..

- أنت لى.. هذا أمر.. أسمعت؟ لقد عشت معك انت لا مع

زوجى.. كنت أنت الذى أحتضنه لا هو.. انت حبيبى.. وانت بغبائك الذى هجرتنى.. والآن يجب أن اتحرك لانقذك.. لاحتفظ بك..

- فات الآوان..

- لا.. لم يفت.. سأقاتل العالم كله من أجلك..

- لك زوج.

- سأطالبه بالطلاق..

- وان رفض..

- سأقتله..

- وأولادك..

- لا أولاد لى.. انت كل شىء فى حياتى..

- لا أولاد لك(؟!!).

- نعم.. لا أولاد لى.. لا أولاد لى.. لقد كرهتهم لانهم يربطوننى بحيوان.. نعم.. اننى اكره أولادى لانهم فصلونى عنك..

- أنت حقيرة..

صمتت فجأة.. كانت كلماتها متلاحقة.. كان كبت السنوات يضغط على لسانها.. بكت.. ولكنها رفعت إلى عينيها نظرة ثقة وتحدى..

- نستطيع أن نبدأ من جديد.. أنا أعلم ماذا تريد جيداً.. أعلم نظراتك التى كانت ولازالت تخترق جسدى.. ذلك الجسد الذى يجعلك تسهر حتى الشروق تتخيل حركاته من.. خلف شباكك الموارب.. أعرف مدى ما تريد.. واعرف ماذا يعنى الحب لى ولك.. نحن متفاهمان على كل شىء يا حبيبى.. أعرف لماذا أحببتها.. لانها جاءت إلى هنا.. رأيتها تصعد اليك من حجرتى.. كنت أكتوى فى كل مكان لمستها فيه..

- أنت حقيرة.. وكل شىء ترينه حقير..

- لقد أتت إليك ابنة الثمانية عشر عاماً ولكنى أجئ إلى هنا وأنا المرأة الكاملة النضوج.. فمن ستحب منا؟.. انها لحظة حبنا الماضى كله.. هيا.. فى هذه اللحظة تخلع عنها روبها الصوف الطويل حتى اخمص قدمها وتقذف بحذائها إلى المجهول.. تفعل ذلك لتبدو عارية تماماً..

أخذته الصدمة.. انبعثت عدة معانى فى لحظة واحدة كان جسدها حلمه الأول وحياته الجديدة ما كان يجب ان تبدأ بخطيئة.. ابعد عينيه عنها.. هجمت على وجهه تقبله فى عنف..

كان يعلم انه أضعف من ان يقاومها.. جذبته رغما عنه الى غرفة النوم وغلّقت الأبواب.. مزقت سترته.. هتفت وهى تغلق الشباك.. لا داعى الآن لمواربة الشباك.. كل ما تريده ملك يديك لانك لى.. لى وحدى..

لم يكن يستطيع أن يقاوم.. كان قد أدرك مدى قذارتها.. ايقن تماماً ان المرأة التى تكره أولادها ما كان لها ان تحب وما كان لها ان تعيش وما كان لها ان تتزوج.. خلع ملابسه وهو لا يعلم ماذا يفعل.. كان كل ماضيه أمامه تحت قدميه وآماله ليس لها الارادة لكى تكبت الماضى الكئيب..

التقى بالسرير وهو يردد.. (أنت حقيرة)..

هتفت..

- كان من الممكن ان نلتقى منذ اليوم الأول لزواجى ولكنك غبى..

غرست يديها فى كتفيه وهى لا تصدق انها أخيراً مع الرجل الذى احبته.. اعتقدت أنها يجب ان تقنعه أكثر بحبها وجسدها لكى تقاوم منال فى داخله.. فزايدت بالحقائق التى كانت مكبوتة فى صدرها على كل كلمة يقولها.. وهو لم يقل أكثر من كلمات العار..

فقد أدرك مدى خستها ووضاعتها.. أيقن ان حبها له وحبه لها كان جسدياً بحتاً وهو حب الاثم والعار والخيانة.. حب هش يموت بعد جفاف الرجولة أو سن اليأس.. ضحك فى سخرية من كل هذه الهواجس.. انه ينساق الى الخطيئة رغما عنه ومع امرأة كان يحبها.. حتى منذ دقائق ويحتقرها منذ الآن فصاعداً.. ردد..

- حقيرة..

- أنا لك بكل ما فى..

- قذرة..

- أنت رجلى.. أنا ملكك..

كان السقوط بشعاً إلى درجة لم يتخيلها.. كان سقوطاً يغذيه رغبة مكبوتة منذ سنوات ما لبثت ان انفجرت بعيداً عن العيون.. كان سقوطاً يمتلك فى ثناياه كل شىء.. الخطيئة.. الشذوذ.. العنف.. الاهانة..

مع الشروق كانت تلملم شتات شعرها المبعثر على جسده.. ترتدى روبها فى تعب.. تتركه متهدج الانفاس غائب الوعى.. تخرج إلى شقتها فى هدوء.

* * *

انهارت مديحة بالكامل داخله ولكن كم كان الثمن فادحاً.. فقد خلفت تلك الليلة شعوراً قاسيا ثار من جملة مديحة (لقد جاءت إلى هنا).. كانت ذاته التى أخذت حقها بالفعل فى الميراث والتى حسنت وضعها فى العمل الى ما تريده تأمل فى أن تلقى كل الماضى الكئيب مزويا فى أحد الأركان.. ثم تتعانق هذه الذات بالحب الجديد الذى تمكن الآن منه.. منال..ولكن قبل ان يموت الماضى ترك فى اعماقه الاثم.. شعر الآن بمدى حقارته بكل ما حدث.. لقد أصبح يكره مديحة.. بل يكره كل الماضى ولكن مديحة قبل ان تتركه تركت بداخله ذكريات الشهوة النارية.. وبذور الشك فى منال.. (إنها أيضاً جاءت إليّ.. تركتنى أقبلها.. أضمها إلى صدرى.. لماذا لا تكون مجرد ممثلة.. مدعية رهبانية فى محراب الحب.. مجرد باكية على جدران الزيف).. كانت هذه هى بذور التلوث المخيف الذى يكاد ان يدمر كل شىء بداخله الماضى والحاضر المكتسب معاً.. صارت تأتيه منال فى خياله.. كما جاءته مديحة.. عارية.. لقد صد الآن مديحة وصفعها وركلها وطردها عندما أتته.. الشهوة المتروكة له من الماضى حولت منال الى مجرد انثى.. اذن فقد أخرجت مديحة الرجل الوحش من

داخله وحتى الآن لم يستطع التصدى له..

المتعة.. قرر ان يختبرها تحت ستار التأكد من شرفها واخلاقياتها.. وصار بين اختيارين كلاهما مر.. اما أن تكون عاهرة ويتحطم رمز البعث او تكون شريفة وساعتها سيتزوجها.. انه يريدها عاهرة (رغما عنه) لان الرجل قد خرج فى ليلة الخطيئة الى اللامنتهى من صدره..

أوهمها انه مريض.. ضغط على رقتها حتى اختار لها يوماً يكون أخوها فى احدى رحلات عمله وكانت الليلة الفاصلة.. صعدت منال بكثير من الحزن إليه.. شفتاها الخضراوتان تتنكران للقبلة التى أفلتت منهما.. وجهها الناصع ممتعض يكره الصعود.. قلبها المنقبض يبثها الرفض..

فتح الباب.. كان الموقف غاية فى الصعوبة.. لقد رأت فى عينيه الرجل البحت.. رأى فى عينيها الأنوثة وفقط.. لم ير الدموع التى تزرفهاعلى حبها المسفوح..

طال كلامه عن ملامحها بالغزل.. كانت كل لحظة تبثها التأكد من وحشيته. وانه تحول من انسان إلى مجرد حيوان.. مد يده إلى

جسدها. تحملت يديه اللتان تقطعان جسدها.. كانت متحمسة للحب الكبير.. للرمز الجميل فى حياتها.. كان حبها الأول.. الرجل الشريف.. صاحب الخصلات البيضاء.. العوينات الشريفة.. العينان العذريتان.. حاولت التأكد من تحوله إلى شخص آخر غير الذى كانت ستحارب العالم كله من أجله.. استدرجته..

- أنت الليلة ملتهب العواطف..

- جداً..

كانت كل كلمة تتبعها حركة من يده.. حتى اغتال جسدها كله بين يديه..

- لماذا طلبتنى الليلة؟

- حتى نتحدث سوياً..

- فى أى شىء..

- فى أى شىء تريدينه..

كان لابد ان تصل الى ما تريد قبل ان تفقد السيطرة على نفسها.. اذن لابد من السؤال الرهيب..

- هل تريدنى الليلة؟..

توقف فجأة عن التنكيل بجسدها.. رفع عيناه إليها..

- هل تريدينى الليلة؟

- أنا التى أسألك..

اغتصب عنقها فى قبلة شرهة.. تحملتها فى بكاء.. ردد..

- نعم.. أريدك.. أريدك.. أريدك..

- وهل كان الحاحك.. مجرد استدراج..

كان ينهل منها ما يريده وهى متشبثة بمقبض الكرسى الكبير..

- نعم.. كان استدراج..

ساعتها كان لابد ان تقاوم.. دفعته فانهار إلى الخلف.. حاولت أن تخرج.. لاحقها.. قام بسرعة خاطفة فأصبح حاجزاً بينها وبين الباب.. طاردها حتى أغلق عليها باب حجر النوم.. اشتعل الرجل فى دمائه.. لم يكن يشعر بأى شىء.. تحولت إليه إلى مجرد جسد.. قاومته.. ثار أكثر..

- ليس هذا هو جزاء حبى لك.. لقد أحببتك أكثر من أى شىء فى حياتى.. أكثر من نفسى ولكنك الآن مجرد حيوان.. حيوان..

أدركت انه لا يسمعها وان الكلمات فقدت معانيها.. اتجهت

إلى شيء ما صلب فى زاوية الحجرة.. اشتبك معها.. كان يريد تمزيق ملابسها حتى تسهل مهمته.. بالفعل أفلح فى ذلك فتعرى صدرها.. اراد ان يواصل هجومه.. صدمته بما فى يدها سال الدم من جبهته.. وكان الألم قد رده عن ثورته بعض الشيء وصلته عند هذه اللحظة بعض كلمات.. كانت قواها توشك على الانهيار.. أرادت أن تتشبث بكلمات لعلها تؤدى إلى نتيجة.. استحلفته برجولته ألا يفعل.. ركعت.. قبلت قدميه ألا يفعل.. وصل إلى وميض عقله فى لحظات الالم وفرار الشهوة الجزئى كلمة رجولتك.. تدافعت الكلمة بداخله لتزيح ركام من أقذار الماضى.. لتضئ ذاته برمز الحاضر والمستقبل.. لتعطى التحدى بعداً جديداً كان قد اعتاده.. وقف مذهولاً.. متهدج الانفاس انها إذن شريفة.. أوقفت دموعها شهوته المتصاعدة وأتت كلمة (رجولتك) على أصداء الماضى البعيد..

مسح دمه بثيابه.. جلس إلى حافة السرير.. رأها من جديد.. جسدها العارى الجريح.. عيناها المشجوجتان.. بحزن أليم.. شعرها المبعثر على كتفيها.. شفتاها التى تترحم على أشياء غريبة.. هدأ بعض الشيء فعلم جُرم ما فعله.. حبى إليها.. واجهها.. رفع رأسها

المنكفئ مسح دموعها الساخنة.. قالها:

- سامحينى..

هزت رأسها فى كبرياء..

- لا.. لا أسامحك..

- منال.. كان رغماً عنى..

- لقد اعترفت.. انك استدرجتنى وحاولت اغتصابى.. هل تعلم مدى الاثم الذى اعانيه منذ صعودى إلى هنا أول مرة؟ كان شعوراً رهيباً.. اننى احتقر نفسى منذ ذلك الوقت كانت أمى تقول دائماً كلمات لا أفهمها.. أو لم أكن أريد أن أفهمها.. مهما قلت لك عن حبى الشريف.. مهما شرحت لك موقفى.. كان لابد ان تشك فى أخلاقياتى.. اللعنة عليك وعلى الحب الذى جعل منى محل شك فى شرفى..

- منال نستطيع ان نبدأ من جديد..

- تستطيع أن تبدأ أنت معى من جديد لانك تأكدت اننى شريفة ولكنى لا أستطيع أن أبدأ أنا معك لأنك لم تعد شريفاً فى عينى..

قامت لتخرج.. كان من الصعب ذلك لان ثيابها ممزقة..

استوقفها.. أخرج من الدولاب روب (أمه) غطاها به.. شيعته بنظرة قاسية فلما كانت على وشك الخروج استدارت واجهته..

كما قالت أمى.. لا يوجد حب.. الخميس القادم.. خطبتى لابن خالتى..

خرجت..

قرر أن يعيش حياته من جديد.. الماضى

قدمات تماماً.. والبعث اتى برمز فقده.. ولكنه ألهمه بصموده انه (لابد) ان يستمر.. فمن المحال ان يعود كما كان.. قرر انه قد آن الآوان ليعيش نظيفاً..

إذن ليعيش من جديد.. حياة جديدة.. وفى مكان جديد..

* * *

فى صباح ما كانت إحدى عربات النقل تنقل أثاثه إلى منزل جديد.. ترك الحارة وهو يشيع الجميع بنظرة أليمة مشرقة..

* * *

(٦)
(معذرة يا زوجى العزيز)

كان ردها قاطعاً (لن أعود إليه).. انسحب الأب من حجرتها كسير النظرة يخفى دموعه.. يتبادل الأحزان مع زوجته.. أمها.. ابنته.. أختها انهارت الأم على المقعد..

- ماذا سيقول الناس.. أبعد شهرين لا غير تعود (منيرة) إلى البيت.. بل وتطلب الطلاق؟

انهمرت دموع الأخت.. كانت لها مشكلتها الخاصة.. فخطيبها على وشك الاقتران بها.. ها هى ترى أختها الكبرى تطلب الطلاق.. يعتصرها الحزن.. فماذا عنها؟!.. كتمت دموعها رغماً.. عنها.. تماسكت.. عادت إلى حجرتها تسأل صورة خطيبها.. هل ستفعل معى مثل ما حدث (لمنيرة)(؟!!) إلا أن صدمة الأب كانت أفجع فقد كان (مراد) محل رغبته منذ أول لحظة.. فى البداية أهمل

نظرات الأم اللوامة ثم تماسك أمامها حتى لا تتهم الأسرة أنه السبب فى كل ما يحدث.. حاول ان يعرف الحقيقة من الأم التى مكثت مع ابنتها ساعة كاملة منذ منتصف ليلة أمس.. لم يهتد إلى شىء لان الأم أيضاً لم تعرف أى شىء.. كل ما وصلا إليه أن (مراد) يعاملها معاملة سيئة.. كيف يا (منيرة)؟.. تبكى ولا تجيب.. هاجت الأسرة.. كيف يعاملها بقسوة؟ هذا الملاك البرئ لا يعرف كيف يحافظ عليه(؟!!) انتهى كل شىء إلى انتظار (مراد) لتلقينه الدرس.. استراحت (منيرة) لسماع هذا عبر فتحة قليلة فتحتها من الباب.. أغلقته.. ضحكت ضحكتها الجميلة الخبيثة.. ارتمت فى أحضان فراشها.. (سامحنى يا حبيبى مراد.. يجب ان أفعل ذلك؟!!) أغمضت عينيها فى أنوثة.. تخيلته قادماً فى حلة الزفاف ليأخذها مرة أخرى إلى داره.. ولكن هذه المرة يجب ان تُعاد الحياة الى ما تريده هى.. قامت بسرعة إلى شباكها الزجاجى.. راقبت الطريق من خلف قطرات المطر.. كانت تتمنى لو رأته كما اعتاد على الرصيف المقابل.. اكتسحت عيناها الزرقاوان موجة حزن وغيظ.. لم يكن موجوداً.. عادت تجر غيظها إلى مهدها العذرى.. احتدمت مشاعرها.. تساءلت.. هل

هى مخطئة؟ هل صائبة؟.

نال منها حزن أسرتها.. إغضاب مراد.. ولكنها لم تيأس.. دافعت بحرارة.. هو المخطئ.. لابد ان أعذبه.. أقلقه.. هذا الجبار زوجى.. تذكرت يوم أن رأته.. كان أسعد أيام حياتها.. خفق قلبها.. أشارت عواطفها بقوة إليه.. قالت انثاها (انه هو) كان فى عينيها (الرجل).. القوة.. الشدة.. الدفء.. وأيضاً البطش.. ولكن مرورها لم يلفت أنظاره.. سارعت.. بسحقه بنظرتها.. كيف لم ينظر إليّ؟ ألم أعجبه؟.. سهرت ليلتها ترسم برموش عينيها وجهه.. عينيه.. شعره.. رجولته.. قررت ان تعيد الكرّة.. لاحظها.. كانت تلك بداية سقوطه فى الفخ.. بادلته النظرة الأولى.. أخذته ملامحها.. شعرها الكستنائى..

انفها الدقيق.. رقتها.. شراستها.. كل شىء.. تعمدت أن تقف لشراء أى شىء حتى يمكنه متابعتها.. أفلحت.. ها هو يسير إلى جوارها وقد رسمت تجهماً رهيباً على وجهها.. لم تلتفت بعد ذلك إليه.. جُن جنونه.. ماذا حدث؟.. هل أغضبتها؟ فى اليوم التالى تكرر نفس الشىء.. النظرة الأولى ثم المراوغة.. قرر أن يتحدث معها.. بذل كل الجهود لكى يحصل منها على كلمة.. لم يفلح.. كان البرود

ينهال عليها ما أن يقترب منها فى نفس الوقت الذى كانت تريد الاتجاه إليه.. رؤيته.. التوسل إليه.. كم عذبها ذلك.. انه يعتقد انها قد تخضع لموعد غرامى.. (هيهات).. قالت ذلك فى حينها.. وعندما طال الوقت.. وكَثَر التراوغ كادت تذهب إليه تتوسل إليه تتوسل إليه هذه الرجولة الطاغية فى ملامحه.. نظرته.. سلوكه.. تماسكت خاصة بعد أن أيقن من نظرة فلتت منها اهتمامها به.. فراح فى عالمه لا يأتيها إلا كل عدة أيام مرة.. يراقبها.. يحاورها صامتةً حتى تصل إلى دارها.. كم من الأيام وقفت خلف شباكها الزجاجى تنظر إليه بعد أن تطفئ النور.. أيام يغيب.. قليل يأتى.. حتى فوجئت به خطيباً قررت الموافقة طبعاً مع الانتقام.. فى الصباح كانت تدمع على صدره من حبه وفى الليل تخاصمه فى المسرة وتهدده بالانفصال لانها اقترنت بمن لا يحبها.. (يا الهى ماذا أفعل معها؟)..

احتار فى أمرها.. هذه الملاك الطاهر المتقلب هل يضربها ويحطم ضلوعها أم يضعها فى داره يحيطها بضلوعه حتى لا يمسها السوء؟.. ولكن ذكاء الانثى كان ينقذها فى كل مرة.. كم من مرة ذهب يلطخ وجهها بصفعات لمعاملتها القبيحة له.. بل ويقذف

بخاتم الخطوبة فى وجهها وعندئذ يرى جميلته فى أبهى صورة وقد انطلق لسانها بكل كلمات الحب.. ساعتها ينسى كل شىء ويضمها فى حنان.. كم اغتاظت من هذه الاحضان البريئة.. التى تمرر أخطائها الآن أنهت مرحلة الثأر لما سلكه معها من كبرياء قتلها وعذب أنثاها المستجيرة به من عينيه قبل الخطبة انها تدخل الآن معركة من أجله هو بداخلها.. انها تعشق منذ نعومة أظافرها الرجل العنيف الشرس ان لزم الأمر القاسى الديكتاتور الذى يملأ داره صياحاً لأقل خطأ يقع منها.. ها هى تلمح هذه الخلال فيه ولكن حبه لها يمنعه من تعنيفها اذا أخطأت.. ساعتها تكون دمع غيظها لا دموع سعادتها.. كانت تريد تحرير رجولته من أسر حبها.. فلا يعمل حساب لها اذا تعارضت رغبته مع رغبتها(!!).. عندما أدركت انها ستنجح فى ذلك سمحت لقلبها ان يردد اسمه فى كل.. نبضة.. ووافقت على الزواج.. كم كانت وديعة قبل الزفاف تكبت حنقها على خوفه على مشاعرها.. تحطم رغبتها فى ان تصيح بوجهه (يا زوجى العزيز.. أريدك ان تصفعنى ان أردت.. ان تضربنى اذا أردت.. ان تقبلنى ان أردت.. ولكن لا تكبت غيظك منى خوفاً

على ملائكتى التى لا أنكرها (؟!!)).. جاءت ليلة الزفاف.. ما ان انفردا حتى أعلنت الحرب على رجولته كانت واثقة من النصر.. واثقة انه سيجئ اليوم الذى يملى ارادته عليها تماماً.. نظر إليها فى صمت رهيب تهدجت أنفاسه.. تمنت لو آثر البقاء فى الحجرة ولكن عالجها بضربة قاسية..

- سأخرج الآن حتى تأخذين راحتك..

صمتت.. خرج.. كتمت غيظها.. أخرجت بيجامته فى أثره.. ابتسمت ترد..

- حتى تأخذ راحتك أيضاً..

على الفور أغلقت الباب.. شرعت تخلع ملابسها فى بطء شديد آتاها دقاته على الباب.. لم ترد.. كان ذلك سماحها بالدخول.. دخل فإذا بها عارية.. كانت تود إثارته أولاً.. أفلحت فى ذلك طبعاً.. انتصرت انثاها.. ها هو يخضع لها.. باقى خطوة أخيرة.. دست نفسها تحت الرداء صاحت..

- أنت لم تتلق رد منى كى تدخل.. (بكت).. لم أتوقع منك ذلك أبداً..

اكتسحه الذهول.. ردد لنفسه (أترانى أخطأت؟)

حاول تهدأتها.. اعتذر بكل كلمات الاعتذار.. أصرت على خروجه.. فعل وهو لا يعرف كيف يفعلها..

صرخت بينما ترتدى ملابسها: لا تنظر من ثقب الباب.. عندما ارتدت كامل ملابسها فى ساعة تقريباً دعته للدخول.. حاول تهدئة أعصابها.. التودد ثم التسلل إليها..

أيقنت ان هذه هى الموقعة الأولى والهامة.. رفضته تماماً .. كانت قد أرسلت إليه أخطر رسالة بجسدها.. المجرد فالهبتة الرسالة.. وكما توقعت.. لابد ان تخرجه عن وعيه وساعتها يجب ان يجبرها على زفافه.. حاول بكل الطرق ولكن كلماتها كانت صريحة..

- سامحنى.. أنا مرهقة جداً..

رددها.. يا خيبة أملى يا مراد..

لمحت بعينيه أمارات الغضب الرهيب.. يده تعتصر الأخرى تريد صفعها.. أسنانه تصدر صرير الغيظ.. كم تمنت فى هذه اللحظة أن يضغط عليها بقوته.. الرجولية أو العضلية.. كانت تريد أن تثق فى مستقبلها أيضاً.. فكانت ستستسلم مع أى محاولة منه لتقتنع انه يملى ارادته عليها.. ولكنه انسحب مقبلاً جبينها فى برود

تاركاً لها الغرفة..

لطمتها الهزيمة القاسية.. انفجرت.. (كان لابد ان يحصل على رغبته.. مهما كان.. انه الرجل انه كل شيء.. حتى لو كان ذلك بصفعى.. باغتصابي).. كانت واثقة من رجولته ومن أنوثتها ورغم الهزيمة بانتصارها(!!) فقد خططت أن تزيل مع الصباح أزمته وحنقه عليها بأن تريه من هى الأنثى التى أختارها.. أردفت وقد أرجأت المواجهة الى ما بعد النوم (حتى لا يتركنى أبداً).. مضيا أسبوعاً العسل هكذا.. بين رضا وقنوط.. تضعه فى اختبارها تارة وفى الأخرى تجعله أسعد رجل فى الدنيا كلها.. عاش بين هذين الخطين مضطرب.. ماذا يفعل بها؟ شعر أنها تتعمد استفزازه ثم تعود إلى أحضانه راكعة متوسلة الا يغضب عليها.. تتمنع وتريد فى آن واحد ثم تتركه يقرر وفى النهاية تأخذه عيناها فيقرر ان يموت ولا يغضبها.. أبداً.. بعد الأسبوعين كان لابد ان يتركها إلى عمله.. فهى إذن المرحلة الجديدة.. عندما كانت على اعتاب هذه المرحلة كان رأيها انها انهزمت بانتصارها عليه.. فقد أصبح ليناً معها أكثر من قبل.. مرت ثلاثة ليال دون أن يمسها ذات مرة.. والليلة الرابعة

كانت ستطلب الطلاق ان قبل عذرها.. قررت اذن أن تطور المعركة.. انها ستعمل كما يعمل.. كانت غير متحمسة للعودة للعمل ولكن خطوة العمل جاءت إثر معارضة لعودتها فأصرت وانحسرت عندما وافق على رأيها.. إذن.. ستعامله كند.. هو يعمل.. هى تعمل.. هو يأتى بالمال.. هى كذلك.. هو له مواعيد.. هى لها خطوات عمل قد تكملها خارج الدار أو داخله.. ومع أول أسبوع اشتعلت النار فى الدار.. ما ان يقرر شيئاً حتى تقف له بالمرصاد تقول كلمتها الشهيرة (لا) يتساءل.. (لماذا؟) تتهرب بحجج واهية عن عمد حتى تظهر تفاهة أعذارها.. ويكون رد فعله الرضوخ الكلى أو الجزئى.. وفى كلتا الحالتين يزداد حنقها.. اكتسحها الاحباط فانه رويداً رويداً يتنازل عن حقوق أصيلة له.. قررت الدخول إلى الخطوة الأخيرة.. ففى احدى المشاجرات انتهزت فرصة كلمة فلتت منه عن غلطته بالارتباط بها فماكان منها الا ان تركت داره إلى دار أبيها.. ها هى الآن تخاف ان تفقد حبيبها.. وتعيسة بما وصل إليه حاله معها.. لقد منت نفسها ان تعيش مع دكتاتور ولكنه مجرد زوج طيب يحبها.. انها تريد الديكتاتور الحبيب.. تساءلت.. ماذا بعد الهرب

إلى دار أبيها؟ هل سيجئ؟ انها تعترف فيما بينا وبين نفسها بخطئها الكبير فما كان يجب ان تتركه ولكن أصول اللعبة كانت تتطلب استفزازه الى أكبر قدر ممكن..

مر أسبوع كامل دون كلمة واحدة من مراد.. سقط هذا عليها كالصاعقة.. استحال ليلها إلى أرق وعذاب.. تساءلت.. هل سيتركها هكذا إلى الأبد؟.. ولكن تلى ذلك شعورها السعيد بانه لاشك يعيد حساباته ليعاملها معاملة أكثر قوة.. ولعل هذا التفكير الأخير هو الذى جعلها تتلمس الهدوء فى بعض الأحيان.. فى عصر ذلك اليوم.. جاء الأب ليخبر (منيرة) أن مراد قادم مساءً للتفاهم..

ثارت منيرة انها تريد الطلاق.. ولا شىء إلا الطلاق.. انه يريد اذلالها.. يريد سحق شخصيتها.. انها لن ترضخ أبداً.. ان لم يحسن معاملته لها.. يجب ان يطلقها..

عند حضوره انهالت عليه الاتهامات من كل مكان.. طالب بتسوية الموضوع مع منيرة.. تمنعت من رؤيته على أحر من الجمر.. أخيراً وافقت أن تتحدث على انفراد معه..

ساد الصمت بينهما عدة دقائق كل يحاول التلصص إلى عينى

الآخر.. اخترق صدرها رائحته المميزة الممتزجة مع رائحة دخانه الغالى.. ارادت ان تلتهم كل رحيق الحجرة ليدخل صدرها المتعطش إلى رائحته.. بكت فى نعومة.. هرع إليها.. جاءها صوته العميق.. لم يبق لها سوى عيناه وتكون قد استعادته مرة أخرى إلى وجدانها..

- ما كنت أحسب أنك ستمكث أسبوعاً كاملاً بدونى هاجمته من حيث لا يحتسب.. اسقط فى يده.. ماذا سيقول؟ بأى هجوم سيهجم؟ ضاعت من حلقه الكلمات.. بقت كلمة واحدة.. (أحبك) قالها فى الطريقة التى كات تود سماعها بها.. ارتمت فى أحضانه..

الطريق إلى بيتها لم يكن بعيداً جداً.. لكنها نهبته فى طريقة أخيرة لمعركتها الأخيرة معه والتى ان فشلت بها سيكون الطلاق.. حرصت منذ ان ولجت الى الدار أن تبين أنها لا تزال على حالتها قبل العودة.. غيّرت ملابسها.. جلست بجانبه دون أن تنبس ببنت شفه..

- هل ستظلين هكذا طويلاً؟

لم ترد سريعاً.. غداً سأذهب إلى عملى..

- أنت فى إجازة منذ أسبوع وستستمر حتى نهاية هذا الأسبوع.

- ولكنى سأقطعها من أجل العودة..

- لماذا؟..

هنا لم ترد..

- منيرة.. لماذا تعاملينى هكذا؟

-ماذا تريد؟

- أريدك..

- عندما أريد أنا أولاً..

ما أن سمع تلك الكلمة حتى وقف غاضباً.. حطم عدة أشياء فى حركته.. انكمشت فى مقعدها تترقبه فى هدوء وحذر..

اتجه إليها فى قوة..

- منيرة.. هل تريدين الطلاق؟

أنبأتها أنثاها أنها أمام ثورة رجولته.. أخيراً ترى غضبه.. صوته الجهورى.. عذابه من أجل كيانه فى بيته.. قررت التلصص إلى كلمة تزيد كرامته اشتعالاً فيلهبها أوامر ونواهى صاح فى جنون..

- أنت لا تحبينى.. أنت تحبين نفسك.. أنت مجرد.. كومة رخام.. برود.. ثلج..

استفزته أكثر بنظراتها المتجاهلة.. المستكرة لما يقول.. اسمعى..

أنت مجرد امرأة.. لقد خالفتنى كثيراً.. ولكنى أحبك.. من أجل هذا كنت أخاف عليك وعلى حبك منى.. لاننى لو تركت نفسى لصفعتك وربما كسّرت ضلوعك.. لن تتمكنين من اذلالى.. أنا هنا الرجل.. أسمعت؟.. أنا هنا الرجل..

علمت انه الآن يصنع رجولته فى بيته.. لابد ان تدفعه الى المزيد من التمسك بهذه الرجولة.. لابد ان تستشعرها وتتمتع بها..

- ما معنى هذا؟.. هل تريد اذلالى؟

- لا.. يا سيدتى.. لا.. أنا أريد أن أكون الرجل.. لقد كنت أتمنى أن نعيش برأيين ولكن ثبت الفشل التام.. (منيرة) لن تذهبى إلى عملك بعد اليوم.. هذا أمر.. فالمال موجود والموضوع منتهى.. غابت عن الوعى.. هل هذا هو مراد حقاً؟.. هل هو من يصيح هكذا؟.. تمتمت نعم.. (هو.. هو)..

- وماذا أيضاً؟

- ستمكثين فى البيت.. هنا.. ترعين مصالحى.. ملابسى الممزقة.. تصممين أثاث الدار لتجعليها أية جمال بدلاً من هذه الكراكيب.. وستكونين تحت امرتى فى أى وقت.. فى أى وقت.. اسمعت؟.. فى أى وقت..

- إنك بذلك لن تكون رجلاً أبداً.. أبداً.. أبداً..

ساعتها لم يتمالك نفسه أراد أن يصفعها وقفت يده فى الهواء.. تلاقت العيون.. كانت تريد تحرير رجولته منها نعم ولكنها لم تكن تريد الاهانة.. اقتنصت لحظة توقف يده.. دفنت وجهها فى صدره.. بكت.. ارادت تثبيت رجولته السيادية حتى لا يضعف مرة أخرى أمام حبها وجمالها وخوفه عليها من بطشه..

هتفت فى صوتها الرهيب وقد ملأت رئتيها رائحته..

- لماذا لم تفعل ذلك منذ زمن طويل؟.. لماذا لم تسمعنى صوتك الجبار هذا من قبل؟.

توقفت المعانى فى نفسه.. انه اذن أمام انثى تعشق سخونة الرجل بلا هوادة وتكره الاهانة.. غمرها بيديه فاحتواها داخل حنانه.. اردفت..

- ماذا تريد منى الآن؟ كل ما تريده سأنفذه يا رجلى الحبيب.. ليس لى حاجة بالعمل بعد أمرك.. لن أعصى لك أمراً مهما كان.. أسمعت مهما كان..

رفعت وجهها إليه.. حدق بها وكأنه يراها لأول مرة.. بسرعة البرق

طابق ما فهمه على كل ما فيها معه فأيقن انثاها التى تتوق للخضوع بأعماقها ابتسم فى دهاء وسعادة.. قبلها فى قوة.. استكانت تماماً..

ردد..

- مهدنا يحتاج إلى نظام.

هرعت الى حجرتيهما.. فأخيراً خضعت

وانتصرت..

* * *

(٧)
وداد.. والمجهول

قرر أن يفعل شيئا.. فقد أصبح من المستحيل السكوت على هذا الوضع الشاذ.. ثبت عويناته جيداً فوق منخاره الأفطس.. أطلق زفيراً طويلاً.. أغلق.. شِقا الكتاب الضخم الماكث أمامه فى صمت رهيب.. صوب نظراته إلى الباب.. حيث الفاصل بينهما.. اعتبر أن هذه هى قضيته الأولى فى حياته.. انه سيتخرج من الحقوق بعد عدة أشهر ليكون ساعد القانون.. ويجب ان ينتصر فى جولاته التى سيبدأ أولها الآن.. سار بخطوات واثقة.. خرج من الباب الكبير.. التفت فى كل الاتجاهات.. تأكد أن الردهة خاوية.. طرق الشقة المجاورة ثلاثة طرقات قوية ثابتة..

كان يعلم أن الزمن سيطول حتى يجئ الرد.. طرق مرة أخرى.. سمع صوتاً نسائياً.. واجلاً..

- منْ..؟

أخذ فى طمأنتها.. كان يعلم أنها المرة الأولى التى يتجرأ أحد ويطرق بابها.. تمتم فى هدوء (وربما تكون الأخيرة)..

- أنا.

- من أنت؟

- أنا السيد شعبان.. جارك يا وداد..

سمع لطمة رهيبة على خدها..

- لا تخافى.. لقد سعيت إلى تخليصك من كل ما أنت فيه..

طال انتظاره.. لم يسمع رداً.. كان يعلم كل ما يدوب بعقلها.. انها المرأة البسيطة.. الخائفة.. سمع الآن بكاءها.

- لا تبكى يا وداد.. كل ما أطلبه منك ان تساعدينى من أجل مساعدتك..

جاء صوتها من خلف ستار البكاء.. مكتوماً.. مهموماً..

- هل أنت فى قوة سعد؟

ردد بلا تردد..

- نعم.. نعم يا وداد..

- كان غيرك أشطر.. لقد صرع حتى الان أربعة ممن أرادوا تخليصى من هذا السجن..

- كل من صارعوه جهلة يا وداد.. ولكنى سأصارعه بالعقل..

- لن تستطيع فعل شىء..

- ساعدينى..

- لا أستطيع..

- لماذا؟

- لأننى لا اعرف ماذا أفعل.. أرجوك ابتعد عنى.. أنت لازلت طالب.. كما أسمع.. وأهلك يريدوك..

ثار السيد من هذه الكلمات.. لم يرد أن يترك هذه الكلمات تمر دون رد..

- أنت مخطئة يا وداد.. سأفعل كل شىء فى سبيل انقاذك .. حتى لو لم ترد أنت نفسك..

سمع خطواتها تبتعد.. ضرب الباب الموصد بعنف معترضا على كل شىء.. انطلقت ثورته فى كل اتجاه.. لقد حاول حل القضية بكل الطرق.. وفشل.. راح منذ عدة أسابيع يجمع معلومات عن دواء..

لم يصل إلى شيء.. البعض قال إنها أجمل الجميلات والبعض زاد.. إنها قبيحة.. بل شديدة القبح..

وهنا برز السؤال.. لماذا يصر سعد على معاشرتها رغم قبحها؟.. لم يجبه أحد.. ولكن أحداهن فسرت ذلك بأن وداد.. شديدة الثراء.. ساعتها أدرك السيد أنه فى مفترق الطرق.. لا يعرف شيئاً.. ازاد ذلك عطشه إلى معرفة الحقيقة.. ان سعد فتوة المنطقة.. ارهب الحارة.. عندما اتت ساكنة جديدة فى الشقة المواجهة للسيد.. توجه اليها سعد وأرغمها على الحياة معه كجارية وكزوجة دون وجه حق.. المدة التى سبقت سجنها لم يعرف عنها أحد شيء.. والآن لا أحد يستطيع أن يرد سعد إلى الحق.. كان الدم يتفجر فى رؤوس أهل الحارة غيظاً لهذا الحرام الواقع تحت أعينهم دون رده..

تفتقت الأفكار عن الشرطة.. وهنا لطمت وداد الحارة كلها.. قررت.. وهى فى دارها (أن سعد قريبها من بعيد.. وانه مجرد زائر.. وسيخطبها فى يوم من الأيام).. اذن.. فلا هو مغتصب ولا هو خائن..

من هذه اللحظة وكل الرؤوس مطأطأة أمام سعد.. لن تنس ذلك اليوم الذى تصدى فيه أحد الرجال إلى سعد.. وكانت نهايته

أليمة.. فقد فارق الحياة بعد معركة شرسة.. وما أغاظ السيد ان احداً لم يقل أى شيء عن الحادث وقيد ضد مجهول.. تلت هذه المحاولة.. عدة محاولات بعضها انتهى بالقتل وأخرى بالضرب حتى الهروب..

توطدت أركان سعد فى دار وداد وفى الحارة.. صار الآمر بكل شيء.. مهما كان... أثار ذلك كل القانون الذى درسه السيد.. وضع أمام نفسه كل الأسئلة.. لم يتلق جواباً واحداً..

ولما طرق الباب إلى وداد كان يعلم أن ذلك سيبقى سراً دفيناً من كل الحارة.. ومن وداد (كل هذا لا يكفى.. يجب التصعيد).. سار فى الحارة الضيقة متجها إلى القهوة.. حيث ملتقى الرجال.. وقف أمامهم.. تجاهلوه أول الأمر كانوا يعلمون فى أى شيء سيكلمهم كعادته.. اراد ان يجبرهم على النظر إليه.. أغلق المذياع الذى ينصتون إليه..

لم يلتفت أحد.. شردوا إلى الأرض.. حطم إحدى المناضد.. هنا ثاروا.. جاءته أصوات من أماكن متفرقة..

- ماذا تريد؟

- أريدكم أنتم.

كان يريد أن يشعل فيهم الحماسة.. أردف..

- أرديكم أن تأدبوا سعد..

تعالت الضحكات الهستيرية من كل مكان.. لم يتلق رداً..

صرخ..

- إذن.. هل ستظلون هكذا؟ جبناء..

- ماذا تريدنا أن نفعل؟

- تقاوموه..

هنا أتاه سيل من الكلمات..

- لقد قتل أربعة منا حتى الآن.

- هى التى تريد يا عم الأفوكاتو.. (دى بنت كلب).

- الحكومة نفسها لم تقدر أن تفعل شىء..

ورد السيد..

- الحكومة لن تفعل كل شىء.. يجب أن نفعل نحن شىء .. كيف ترضون ان تنام هذه البريئة فى حضن هذا الوحش فى الحرام.. كل هذا وبجانبكم الجامع.. ومن خلفكم الشيوخ والضباط..

سادت الهمهمة.. انطلقت كلمات اعتراض خفيضة جداً.. خرق

هذا صرخة أحد الجالسين..

- حقاً أيها الرجال.. الا يوجد بيننا رجل رشيد؟.. حتى لو متنا جميعاً لابد ان نخرج هذه البريئة من هذا السجن من هذا الحرام..

وردد آخر..

- يا أستاذ سيد.. نحن معك..

وثالث..

- سعد رجل حقير.. ربنا يهده..

وتعالت الصيحات..

- الحلوف يريد ان يأخذ مالها.. لعلمكم وداد معها مال..

زوجتى علمت بذلك قبل ان يسجنها المفترى بيوم واحد..

- زوجتى أيضاً قالت لى أنها رائعة الجمال..

- كنت أود أن أرها لولا الطرحة السوداء التى تلازمها عند خروجها مع سعد.. (يا بختة)..

وهنا ثارت القهوة.. كانت فلتة لسانه صعبة الوقع على خيالهم.. فسارع قائلها إلى معاودة الهجوم..

- يا بخته.. الذى يجعله الله فى سبيل فك سجنها..

هدأت الخواطر.. انتهز السيد الفرصة ليجمع الجهود ويركز الهدف..

- اذن لم يعد علينا الا الهجوم.. سعد سيجئ الساعة الثامنة الليلة.. سأحضر إليكم لندخل جميعاً الدار ونضربه ونخرج وداد..

انهالت التهانى من كل حدب وصوب..

- هذا هو الرجل..

- عاش.. عاش..

- كلنا معك يا بطل..

لم يقطع كل هذه التهانى الا قدوم مدحت.. احتضنا.. السيد ومدحت.. اذ أنهما لم يلتقيا منذ زمن طويل.. انسحب من القهوة بعد أن أكد موعده فى الثامنة معهم.. ذهب إلى شقته الصغيرة مع ضيفه الحقوقى مدحت.. تناولا طعام الغداء.. لاحظ مدحت علامات التوتر على وجه السيد.. أجاب بأن هذا طبيعى فى مثل هذه الظروف..

- إنك دائماً تحشر نفسك فى مالا دخل لك فيه يا سيد وكأن هذه الجملة كانت الصاعقة..

هاج السيد وماج..

- كيف تقول ذلك؟ هل نسيت أننا حقوقيون؟.. هل تنسى أننا من نحمل لواء القانون.. ان متنا من سيكونون وكلاء نيابة فقضاة.. نحن درع المجتمع..

- درع(؟!) هل هى حرب يا عزيزى..

- نعم.. هى حرب.. حرب فى كل مكان.. يجب ان يتسيد القانون كل شىء.. وفى كل مكان.. ولقد بدأت فعلاً فى ذلك..

- ماذا فعلت؟

- سأبدأ بتحرير سجن وداد..

- يا نهار أسود.. وداد.. التى حدثتنى عنها من قبل؟

- نعم..

- التى يغتصبها سعد.. الفتوه؟

- نعم..

- إذن.. السلام عليكم.. اننى خارج.. خارج.. يا ولدى يلاحقه فى قوة..

- انتظر يا مدحت.. ان الأمر ليس بهذه الصعوبة.. إن الرجال الآن أصبحوا تحت امرتى..

تحت امرتك؟

- بل أصبحوا على قلب رجل واحد..

- اسمع.. ان كلمات جامعة فؤاد الأول الفارغة لن تغنى ولن تسمن من جوع.. هل تسمى هؤلاء الحشاشين رجالا؟.

- هؤلاء هم السواد الأعظم.. هم الطيبون..

- وماذا ستفعل بهؤلاء الطيبين؟

- سنضرب سعد ونحرر وداد فى الثامنة اليوم..

- إذن .. السلام عليكم..

- اثبت يا مدحت.. انك لا تعرف وداد..

- وهل أنت الذى تعرفها؟

- لا.. ولكنى جمعت عنها المعلومات.. انها جميلة..

- جميلة(؟!!)

- بل إنها رائعة.. رائعة إلى درجة لا تتخيلها..

- لا أتخيلها..

- وغنية..

- غنية(؟!!).

- جداً.. من أجل المال والجمال يفعل سعد المستحيل..

- ولكنك لم تقل هذا من قبل لى..

- لاننى توصلت إلى ذلك منذ عدة أيام فقط.. مدحت اننى أريد مساعدتك فى المعركة القادمة.. باقى ثلاث ساعات عليها..

اتفقا على التضامن من أجل ضرب سعد.. من أجل الانتظار طرح مدحت رأسه إلى الوسادة الممزقة فى غرفة الشقة الكئيبة.. راح خياله يسرح فى متاهات الشقة المواجهة تُرى.. من هى وداد؟ أهى ملاك؟ أهى ثرية؟..

لقد أتى من قريته حالاً من أجل أن يمكث مع صديقه السيد عدة أيام على مضض.. فليس معه المال لكى يستقل بنفسه فى حجرة خاصة.. كم آلمه تقاسم أكل السيد.. كانت يده تتقطر حزناً عندما تمتد إلى اللقيمات الجافة المغموسة فى العسل الأسود.. ولكن ماذا يفعل؟ هذا كل ما بوسعه لانه أفقر من الفقر.. مد يده إلى إحدى الكتب التى شحذها من صديقه السيد والمرصعة ببقع العسل الأسود.. حاول أن يقرأ.. ولكن الكلمات توقفت فى حلقة.. داهمته نوبة ضحك رهيبة.. كتمها.. فقد أدرك أنه لكى ينجح لابد أن يحفظ

عدة مئات من الأوراق.. تماماً كما يحفظ اسمه عندما تقلب على سرير صديقه الذى يرصد التحركات فى الشارع عبر الشباك.. داهمه الباب الذى يفصله عن وداد..

كم تمنى ان يفتح الباب تلو الباب حتى يصل إلى الجمال الأصيل المبعثر فى الحارات.. المدفونة بدورها بين الشوارع الكبرى.. تمنى ان يهديها صورته وهو يحمل الأثقاف الحديدية فى إحدى مسابقات المركز.. كانت له هوايات فى حمل الأثقال وبالفعل كسب عدة جولات.. على مستوى المركز.. تمنى لو أنه أهداها صورته وهو فى أوج انتصاره.. ليقول لها.. (إن هذا هو أنا).. (أنا الذى استطيع حمايتك)..

هد أحلامه سقوط احدى خشبات السرير.. اهتز جسده الثقيل بالكامل.. ومع جسده كل أحلامه.. استمر فى التقلب.. التقى مع صديقه المنهمك فى الرصد..

ضحك ساخراً هذه المرة.. كان يعلم ان صديقه مجنون بالثورة.. والقوة.. والمبادئ.. كان لابد ان يوافقه على آرائه حتى يحضر إليه كلما أراد دون خجل.. لطالما سخر من أفكاره ولكنه لا يستطيع ان يختلف معه الاختلاف الحاد الذى يفرقه عن مأواه الوحيد.. مصدر

كتبه الوحيد..

انتفض السيد صائحا..

- لقد جاء سعد..

كان ذلك يعنى بداية مواجهة.. أكمل..

- وجلس على القهوة..

أكمل مدحت كل هذا.. أغمض عينينه فى هدوء وقد انتشى وجهه.. حضن وسادته وقد ردد فى هدوء.. أين أنت.. يا ودادى؟..

* * *

الصمت كان مفزعاً فى القهوة.. بالأمر هذه المرة أغلق المذياع.. فقد كان سعد يعانى الصداع.. لم يكن يُسمع إلا صوت رشف الشاى والقهوة..

لم يعتد سعد هذا الهدوء الرهيب.. هذه النظرة المتحدية الهشة.. أدرك سعد أن ثمة أشياء تدور فى العيون.. كان يعرف علاجهم جيداً..

وقف فجأة.. صرخ فى وجوههم..

- ما هذا الهدوء الغريب؟

لم يجب أحد..

- لماذا لا تتكلمون؟..

أمسك أحد الكراسى.. حطم به زجاج النوافذ هرع إليه صاحب القهوة متوسلا أن يكف عن التحطيم.. قذف الكرسى بالفحم المتوهج امسك عنق صاحب المقهى..

- ماذا يحدث هنا؟.. كل شىء غريب.. اشعر أن ثمة شىء يدبر؟

كانت كل العيون تبحث عن السيد.. (الأفوكاتو).. الذى الهبهم حماسة.. ورغم ان الموعد لم يأت بعد إلا أن حرج الموقف جعلهم يستدعوه فى الخيال فوراً.. صرخ صاحب المقهى..

- كل شىء عادى يا سى سعد..

- أتخدعنى يا جربوع؟

راح الى المذياع حمله بيد واحدة.. ركع صاحب المقهى سأقول كل شىء..

وضع المذياع مكانه.. اقترب فى هدوء..

- الشرطة مرة ثانية؟

- لا.. انه الأفوكاتو..

- الواد سيد..

- حضر الى هنا وأثار المقهى عليك..

- ماذا كان يريد..؟

- كان يريد ان يضربك أهل الحارة ويفكوا سجن وداد..

- سجن(؟!!).

- هكذا قال الملعون ابن الكلب..

تصاعدت هنا الكلمات من كل مكان..

- انه يكرهك يا معلم سعد..

- يريد ان يكون المعلم..

- محال.. المعلم سعد والا فلا..

- نحن معك يا معلم سعد حتى النهاية..

- هل سنجد أعدل منك لحماية وداد..

- الله يخليك.. ويبارك لنا فيك..

- يا بخته.. يا بخته.. الذى يكون من أتباعك..

- الله يرضى عنك يا بنى..

- يا حامينا..

- يا رافع رايتنا..

غلى الدم فى عروق سعد.. صمم أن ينهى المسألة.. خرج من المقهى كالثور الهائج.. أخذ يدق على الباب.. فزع مدحت من أحلامه.. سأل السيد عن الطارق.. رد فى تحدى..

- إنه سعد..

ما إن سمع بذلك حتى سقط تحت السرير.. زاد الطرق غلظة ووحشية.. اطلق صوتاً رهيباً سال فى أثره عرق الاثنين.. تقدم السيد إلى الباب.. حاول مدحت معارضته.. رفض السيد.. لم يترك سعد الفرصة لكى يُفتح له الباب.. فقد فسخه بضربة قدم واحدة.. اكتسح الرعب الصديقين.. كان سعد شيئاً رهيباً.. طويلاً.. عريضاً.. كث الشارب.. يميل إلى السُمرة.. اتجه إلى السيد الذى يعرفه جيداً.. جره من قفاه بينما هو لا يعرف حتى كيف يلكمه.. طرحه ارضا على أرض الحارة.. خرج الجميع من النوافذ فى صمت رهيب.. تركزت العيون على الملقى ارضاً من جديد.. بعض العيون سعيدة.. بعضها تعيس.. صرخ سعد..

- ها هو اللص أخيراً.. ها هو من يتلصص إلى الأعراض.. لابد ان أدافع عن الحارة المسكينة.. هذا قدرى.. اننى أحبكم يا أهل

حارتى.. يا أعظم ناس.. يا أتقى ناس.. يا أصدق ناس.. يا أجمل ناس.. لقد عاشت هذه الحارة نظيفة.. لا يدخلها وسواس.. ولا حسود.. ثم يجئ هذا الوضيع ليوقع بينى وبين وداد خطيبتى.. وبينى وبين أهلى وناسى وأحبائى.. أهل حارتى؟.. اننى لن أسكت أبداً عن هذا.. لن أسكت على اهانة ناسى بأن يكون بينهم هذا الآفاق الحرامى..

شاهد مدحت كل هذا فى صمت.. علم أن مصير صديقه قد أصبح فى خطر مطبق.. قرر ان يتدخل وينقذ صديقه فيزداد رصيده لديه.. ساعتها سيكون له بعض الجميل عليه كما أعطاه صديقه الكثير من قبل.. نوى سعد ان يحطم جمجمة السيد بضربة من رأسه المصفح.. وقبل ان يشرع فى ذلك.. حاول ان يستنجد السيد بأهل الحارة.. ولكن الصمت كان قد اعتقل الألسنة.. اغتال الأيادى والأقدام.. ارهب الإرادة.. سدد نظرة إلى شباك وداد.. لاحظ شبحها خلف خشب الشباك.. أسرع إلى الشباك.. يطلب نجدتها.. ولكن لا أحد يجيب.. حمل سعد السيد بين يديه وما أن أراد تحطيم رأسه.. كانت يد مدحت تطالبه ببعض الرفق.. ترك سعد السيد متوجها إلى مدحت.. حاول مدحت أن يفاوض.. يناقش.. ولكن كانت قبضة

سعد قبل كل شيء.. فارتمى أرضاً.. هرع إليه بقدمه يركله فى كل جزء منه.. امسك مدحت قدمه.. أبعدها بصعوبة بالغة.. انه لم يتوقع كل هذا.. كان يريد المصاحلة فقط.. انه ليس طرفاً فى هذا النزاع.. كانت كل كلماته تذهب أصداء الرياح.. أخيراً أيقن انه يجب ان يدافع عن نفسه.. استرجع بعضاً من تعاليم مدربه.. كيف يسدد الضربات بقوة.. كيف يستخدم قوته العضلية اذا ما اضطر إلى استخدامها.. المعركة كانت تتصاعد دون وعى.. وكلما طال مدحت سعد فى ضربة زاد سعار سعد.. حتى صار كالطور هائجاً.. وقد بدى انه لابد ان يقتل مدحت.. ايقن مدحت هذا الخاطر.. خاصة انه كان يعلم ان هذا هو أسلوب سعد.. حدد مدحت هدفه جيداً.. ضربة قوية فى الركبة يتلوها ضربة شرسة بين فخذيه ساعتها تأتى النهاية بضربة حجر فى رأسه..

وها هى الخطة تأتى ثمارها.. حيث سقط سعد أرضاً وقد تفجر الدم من رأسه.. اكستح الذهول الجميع.. هل هذا الشاب استطاع سحق الرهيب سعد(؟!!).. أفاق مدحت من صراعه.. كان المشهد رهيباً.. صامتاً عقد كل الألسنة.. رهبة زرعت فى كل العيون من

صاحبه نظر إلى شباك وداد.. رأى شبحها الذى هز خياله.. المال.. والجمال.. رأى المفتاح المتدلى من رقبة سعد.. أيقن أنه مفتاح الولوج إلى خياله.. حيث سيأكل أخيراً.. ويروى جسده من بعض الخيال.. تساءل.. لماذا لا يكون سعداً جديداً؟ لماذا لا يستحوذ على المفتاح.. يدخل الجنة.. ويبقى.. الحال كما هو عليه؟ أهل الحارة يحتاجون إلى فتوة يرهبهم وينافقهم ويحميهم.. وهو يحتاج إلى خدم ومال وامرأة؟ لماذا لا يكون فتوةً جديداً؟.. لماذا لا يترك الحقوق التى أزادت فقره فقراً؟ ولماذا يتركها؟ إنه يمكن أن يدرس أيضاً.. يمكن ان يكون فتوة فى المساء.. وحقوقى فى الصباح.. انه سينجح.. لا لكى يكون محامياً أو حتى قاضياً.. بل من أجل أن يحصل على شهادة يضعها أبوه فى حجرة الضيوف وينتهى الأمر.. أفزعه أهل الحارة.. ووداد نفسها.. ولكنه حل مشكلة أهل الحارة.. ان صيحة واحدة منه ستجعلهم كسابق عهدهم.. أما وداد.. سيضربها كل يوم.. حتى ترضخ له..

مد يده إلى المفتاح.. نظفه من آثار الدم المتجلط.. أحكم قبضته عليه.. صاح فيهم كلهم..

- من اليوم.. أنا الفتوة.. كل ما كان يفعله سعد.. سأفعله أنا.. وداد خطيبتى.. فى حمايتى..

انحسرت النظرة السعيدة المتسللة إلى عيونهم.. هزوا رؤوسهم علامة الانصياع.. بدأت الحركة تدب من جديد فى الحارة.. الكل ذهب إلى حيث يريد.. إلى القهوة.. إلى السوق.. إلى الدار.. عادت الحركة كما كانت تماماً.. لم يستوعب السيد كل ما حدث..سأل صديقه عن معنى كلماته.. وكزه فى قوة.. لم يلتفت إليه تحرك مدحت باتجاه الباب.. ألهبه خياله.. ترى كيف تكون وداد(؟!!) فتح الباب.. غلّقه مرة أخرى خوفاً أن يرى أحداً أى شىء من عالمه الجديد الذى ظل مختفياً عن الانظار أياماً طويلة.. اسند ظهره إلى بابه.. واجه الظلام الذى اكتسح المكان.. اشعل النور كان عليه إذن أن يدخل ولكن أين هى من هذا المكان الفسيح؟..

أمامه عدة أبواب.. دخلها كلها.. باقى آخرها.. يبدو انها غرفة النوم.. فتحها بهدوء.. أصدر الباب صريره المكتوم.. فاجأه ضوء ساطع.. جال ببصره فى كل الثنايا.. هناك على أحد المقاعد.. جلست وداد.. حدق بها جيداً.. كانت رائعة.. زرقاء العينان.. متفحمة الشعر.. ناصعة

البشرة.. جسدها الأفعوانى لا يستقر تحت ردائها الحريرى الأزرق..

ضحكت فى قوة..

- أنت إذن رجلى الجديد؟..

- نعم..

- وهل أنت فى قوة سعد؟

- لقد قتلت سعد.. وسأقتلك أنت إن رفضتنى..

- ومن قال لك أننى سأرفضك.. أنا التى طلبت من سعد ان يكون رجلى.. أنا أحب الرجال جداً..

- ألم يكن سعد يغتصبك؟..

- لا يستطيع رجل ان يغتصب امرأة.. اسمع.. لا تضيع الوقت.. انت الآن الفتوة.. الرجل.. تحتاج إلى الكثير من التفاصيل لكى تهدأ..

- أخاف أن يخونونى ويبلغوا الشرطة..

- لا تخف.. هذا محال.. لانهم جبناء.. فعلها سعد أربعة مرات ولم يفعلوا شيئاً.. من الآن ستصبح أنت الأقوى.. لاننى سأعطيك مالاً أيضاً.. تساعد به من تساعد ولا تساعد به من يعصيك..

- هل أنت غنية؟..

- ورثت أمى.. وجئت إلى هنا وحيدة.. كسيرة.. اتحدت كل الحارة ضدى.. النساء غيرن منى.. الرجال.. كل الرجال أرادونى.. وكان يجب ان اختار رجلاً دون أن يدروا.. ليحمينى..

- ولماذا أيضاً؟

- لكل شىء.. الليلة سأخرج معك.. تشترى كل ما يلزمك ويلزم حجرة نومنا الجديدة.. كل شىء يجب ان يتغير.. كل نظام الدار يجب ان يتغير.. لان حبيب جديد.. قد أتى..

قامت.. أخذته بين أحضانها.. اعتصرته.. اعتصرها شقت ملابسه فى شراسة.. مزق ملابسها فى عنف..

* * *

عندما المساء.. خرج الجميع إلى المقهى.. السيد يقرأ فى كتابه مذهولاً.. لا يعلم شيئاً.. لا يفهم شيئاً.. القلق يكتسح الباقون.. فهم لا يعلمون أى شىء يريده مدحت(؟!)..

نظرت وداد من بين ضلوع شباكها القاتم.. رأت الجميع دون أن يروها.. اطمأنت إلى حال الحارة.. خرجت وقد وضعت وشاحاً أسود على كل رأسها.. فلم يبدُ منها أى شىء.. نكست رأسها عمداً

بينما تسير بجانب مدحت المنتفخ الأوداج.. طالت كل النظرات المحبة لها المشفقة عليها.. توقفا أمام جثة سعد المغطاة بورق الجرائد.. عاودا المسير.. توقفا مرة أخرى أمام المقهى.. أخرج مدحت رزمة مالية من جيبه.. دسها فى جيب صاحب المقهى..

- أصلح القهوة يا عم فرغلى..

- تعيش يا سى مدحت..

اتجه إلى رواد المقهى..

- القضية يجب ان تُسجل ضد مجهول..

اكتسح الصمت الجميع..

- ماذا عن ابنك يا عم متولى؟.. لا تخف ستُدفع مصاريف علاجه.. وأنت يا عم فراج؟.. خاتم خطوبة ابنك سيصلك غداً.. وأنت يا عم سالم غداً سنتحدث فى موضوع كشكك الذى حرقه لك سعد.. لا تخافوا يا أهل حارتى.. من اليوم كل شىء سيتغير.. الى الصلاح..

(سار مبتعداً).. وتصاعدت الكلمات من كل حدب وصوب..

- الله يكرمك..

- واللاهى رجل طيب..

- لابد ان نعترف انه كان فى حالة دفاع شرعى عن النفس.. الشرع معه.. طبعاً..

- ونعم الرجال..

قبض مدحت على يد وداد عندما سمع الكلمات المنهالة عليه.. نظرت اليه من خلف جدارها الأسود كأنها تقول له (ألم أقل لك؟)..

ساعتها أطلق الصعداء.. علم ان كل شىء سيسير على ما يرام.. أهل الحارة اقتنعوا بانه على الطريق الصحيح معهم.. وأن القضية ستقيد ضد مجهول وان حاول السيد صديقه رد الضربة إليه سيكون هو القاتل بشهادة الشهود.. لقد لمح فى عينى صديقه نظرات الانتقام الصابر مع الغباء المفاجئ..علم أنه لابد ان يواجه كل هذا بكسب الحارة.. ونجح.. ترك راحته تماماً ليد وداد الناعمة التى أحكمت قبضتها عليها.. أما السيد.. فقد قرر الهجرة من الحارة.. ولكنه تساءل فى لوعة.. من أين عرف مدحت بكل هذه المعلومات؟.. وقف أمام جثة سعد.. حدّق بالشباك القاتم المواجه له.. لوى إلى لا شىء وهو لا يعرف ما هو مصير المسكينة وداد مع هذا المجهول الجديد؟..

* * *

(٨)
تحت المطر

انهى لمساته الأخيرة على حُلته.. اطلق نظرة شاردة تخيل فيها هندامه.. وثق انه على ما يرام.. ولج بسرعة إلى حجرة مكتبه.. رتب أوراق حقيبته فى عناية على المكتب وفى الخزنة الحديدية.. أعطى ظهره لراحة كرسيه الفخم.. يومه المرهق انصرم حثيثاً.. كم هو فى حاجة إلى عشاء شهى.. وزوجة جميلة.. ما أن جاء ذكر الزوجة حتى تقلصت ملامحه.. تذكر امرأته.. كانت أميرة جمال.. من أكبر العائلات.. ولكنه كان يصمها دائماً بالبرود.. انها تعامله كموظفة.. تبتسم فى وقار شديد.. تعرف جيداً فى كل أصناف الطعام.. تصدر أوامرها إلى الخدم ليعدوا كل شىء بأوامر صارمة.. عالمة بأمور الارستقراطية.. بالرداء والزينة والكلام.. اطلق زفرة أسى.. (ولكنها لا تعرف كيف تكون امرأة).. حاول ان يؤجل موعد رؤيتها.. اخذ يقرأ فى أوراق عمله..

(خطة جديدة لمقاومة الإجرام).. وجد انه من العبث ان يقرأ فى المساء هذا التقرير المقرف.. ازاح الملزمة.. قرأ أخرى.. (تقيم اجتماعى للمناطق العشوائية).. اللعنة على العشوائيات..

أزاح وأتى بثالثة.. (الخليج.. واعلان دمشق)..

- ما لى أنا بكل هذا.. اللعنة على الوظيفة الكبرى.. اللعنة على التقارير والاجتماعات والرحلات.. والمحليات أيضاً..

أحكم غلق الخزنة على أوراقه.. اخذ يستطلع الشارع عبر نافذته.. علق نظراته بقطرات المطر التى غسلت شباكه.. تمنى لو غسل حياته كلها تحت المطر.. انه يريد الذهاب بعيداً.. عن كل شىء.. السياسة.. الجامعة.. الحياة.. ليعيش دون ضجة.. معارضة.. أوامر.. مؤتمرين.. مع امرأة تستطيع ان تجعل منه رجلاً كاملاً لا يخافها.. اجتاحه شعور عنيف بالاغتسال.. أراد الخروج بملابسه إلى المطر.. يترك نفسه للماء ليذيب كل الهموم.. داهمه صوت زوجته المتهكم دائماً ان فعل ذلك.. انها ستقول بالطبع (لا يليق هذا برجل فى مثل منزلتك)..

على الفور أحكم غلق نافذته.. أقبر ضوء مكتبه.. قرر الصعود إليها..

* * *

كانت تنتظره.. تعلم ما سيفعل.. سيطلق (مساء الخير) فى جمود.. وأحيانا مع ابتسامة كابتسامة الاجتماعات العقيمة التى لا تثمر نتائج.. وأحياناً مع هزة طفيفة جداً للرأس..

تتوقع عند هذه الهزة انتصار ما فى عمله فتقابله بابتسامة.. يشرع بعدها فى تغير ملابسه سريعاً.. ربما بسرعة الضوء.. يجلس بجانبها حتى لا تراه ولا يراها.. فاما يكون طعام صامت أو مشاهدة.. تلفازية تبدأ وتنتهى بالأخبار.. أو ينسحب كالعادة إلى مكتبه.. ثم يداهمها فى الفجر لينام بلا حراك ليبدأ يومه بعد أربع ساعات فقط من الراحة.. انها أيضاً تحفظه جيداً.. أخذت تسمع صوت أقدامه.. لم تكترث.. أرسلت نظرتها إلى التلفاز الموضوع برصانة فى احد الأركان بغرفة النوم.. فتح الباب..

- مساء الخير.. كانت مجردة هذه المرة من كل شىء..

ردت وهى تتابع المشاهد..

- مساء الخير..

راقبته بلحظ عينيها عبر المرآة.. غيّر ملابسه فى لحظات قليلة.. تقدم فى هدوء.. جلس بجانبها.. ابتعد عنها متراً التقط جريدة من

فوق المنضدة.؟. جاملته..

- هل تناولت العشاء؟..

بعد عشر ثوان جاءّا الرد.. مقتضب..

- نعم..

لم تسأله متى أو كيف.. فهى تعلم كل شىء.. فى المرات التى يتناول عشاءه خارج المنزل يكون فى مكتبه مع مدير المكتب.. لم يشأ أن تمر المجاملة دون رد..

- وأنتِ؟

- (رِجيم)..

ضحك بهيستريا صامتاً.. أدرك انها أجابت إجابة سياسية بحتة.. فلم تجب وأجابت ولم يفته أن يلعن السياسة ومبدعيها منذ الفراعنة حتى الآن.. ولكن الكلمة وقعت عليه فى جانب ملتهب فى نفسه.. كان يود أن يسألها عن سبب (الرِجيم) ثم يعلن رأيه فى جسدها وجماله.. ذلك الرأى الذى لم يعلن أبداً.. خاف ان تفسر سؤاله بأنه يحبها أكثر من اللازم.. فى نفس الوقت الذى يحبها بكل كيانه..

انها لم تتحدث عن رجولته يوماً.. لم تأذخه فى ثناياها كطفل أو كرجل.. لم تمتدحه.. لم تبك له.. لم تنتظره على العشاء الا قليلاً.. انه لم يأكل شيئاً من الظهيرة ولكن شهيته مغلفة متخلقة من كل الجدل باعلانه تناول العشاء.. أدرك انها لا تحبه.. او انها لا تحبه كما يحبها.. فلم اذن يسألها سؤالاً عن جسدها يزيد غرورها(؟!!).. انه لن يجعلها تعامله بمزيد من كبرياء.. بمزيد من ارستقراطية.. انها ابنة أكبر عائلات.. هو أيضاً مكافح حتى وصل إلى درجة عالية من المجتمع.. انه لن يسمح لها بأن تعلمه كيف يأكل.. كما تريد او كما يريد المجتمع الذى تربت فيه.. انه لن يسمح لها بأن تقول له ارتدى ذلك ولا ترتدى هذا.. انه يدرك فلسفة الالوان والمودة.. ما يناسبه وما لا يناسبه.. انه لن يسمح لها بان تجعله يركع لجمالها كما ركع قبله مئات العشاق.. لن يتحسس اليها طلبا بلقائها فى حجرة الزوجية.. لن يفرض رأيه عليها فتكون معه رغما عنها.. جسداً بلا روح.. كل هذا جعله يكتم سؤاله عن (الرِجيم).. رمى الجريدة على المنضدة – لا جديد.. لا جديد..

لم ترد.. كانت تتابع مشهداً شعر انه قد استحوذها.. لفت

نظره شدة انتباهها.. اراد ان يطيل نظرته إلى وجهها.. انه لم يتمعن به منذ وقت طويل.. أطلق لنفسه العنان بعد ان أخذه جمالها..

(كم أنت جميلة.. عيناك السوداوان.. شعرك المتفحم المتوحش.. بشرتك الحمراء.. شفتاك الملتهبتان.. ردائك الأحمر.. كل شيء فيك ينبض بالأنوثة.. ولكن جسدك بارد.. شفتاك لا تخمد.. أنا ملك لا تتوسل.. ولكن رغم كل هذا البرود.. أنت رائعة).. سحب عينيه الى المشهد الذى استولى عليها رغما عنه.. خاف ان تضبطه فى لحظة لهفة وضعف..

كان مشهد نهاية.. المرأة تحتضن حبيبها التقيا فى قبلة عميقة طويلة.. كيف ستبرر هذا الاندماج؟.. خافت ان يفسر ذلك باشتياقها العنيف إليه. ذلك الاشتياق الذى يدمر كيانها المتعطش إليه.. كان لابد ان تدرء الشبهة.. انتفضت.. انقضت على التلفاز.. اغلقته.. هتفت.. (قلة أدب)..

كانت ناقمة على كل شيء.. على الرجل والمرأة اللذان يتمتعان بحياتهما عبر الأثير.. بينما هى تعيسة.. إنها ناقمة على زوجها الذى لم يفهمها يوما من الأيام.. اتجهت إلى الضاغط.. اعدمت الضوء..

قالت لشبحه الماكث مذهولاً (سأنام..) دست نفسها تحت الغطاء الوثير.. دفنت رأسها فى وسادتها الناعمة.. جاهدت ان تكبح صوتها المتألم بأقصى ما تستطيع من قوة.. تهدجت أنفاسها.. علقت أنظارها بشبحه الماكث فى هدوء فى الظلام.. كانت يائسة تماماً منه لانها تعلم ان هذا اليوم ليس اليوم الذى حدداه للقاء.. فما كان عليها الا المزيد من البكاء المكظوم.. والخيال الممتد.. والعودة إلى الماضى.. تذكرت.. استبشرت خيراً به كزوج.. عاشا خطوبة قصيرة شديدة الاحتشام.. أدركت به القدرة الشديدة على ضبط النفس.. أحبته.. لهذه الصرامة والقوة.. عندما بدأت الحياة الزوجية.. شعرت ان ثمة حائلاً قد بدى.. انه شديد الاعتزاز بالنفس.. يتحرى فى كل خطوة يقوم بها.. كأنه (يحسبها) قبل ان يقول لها (أحبك).. انها تتذكر عدد المرات التى قالها فيها.. مرة فى ليلة الزفاف.. ومرة فى كل عيد زواج.. اذن هم خمسة مرات.. لم يكن لديها استعداد نفسى بان تلقى نفسها بين يديه أو تستدرجه إلى سريرها.. أو تقوده إلى جلسة قمرية عاطفية.. بدأ الانسحاب.. اتصفت الحياة بينهما بصفات عمله وارستقراطيتها.. فجاءت مستقطبة.. باردة..

جافة.. متحدية.. انهما لا يعرفان من أين أتى هذا النفور..؟.. وكيف بدأ.. ومن الذى بدأه.. ولكنهما الآن يعيشان.. كأمر واقع.. وكلاهما يعتقد انه سينهار أمام الآخر اذا ما كسر حاجز الصمت..

تحرك شبحه.. توسلت إلى الله ان يهديه إليها فى هذا الظلام.. اندس تحت فراشه الوثير.. يحترق هوالآخر.. الصمت اكتسح المكان.. كل يكتم انفاسه المتهدجة.. جاءت قطرات المطر لترتطم بالزجاج.. كان هذا الصوت متنفساً لهما.. انطلقت الانفاس الحبيسة من مكان الصدور لتتوه مع الأصوات المنتظمة فى عبثية.. أنهكها الخيال الذى وضعها على حافة القلق.. كانت تريد الاجابة عن السؤال.. لماذا لا يقترب منها؟.. ان أمسيات كثيرة يقضيها فى مكتبه.. او مع أصدقائه.. لماذا لا يدعوها إلى النزهة.. او إلى العشاء خارج السجن الجميل هذا؟ (إنه دائما خائر القوى غير راغب فيّ)..

أسلمها القلق إلى شىء ما تفسر به حالته معها.. قالتها فى يقين (إنه يخونني).. (المرة الواحدة أسبوعياً التى حددها هو لنا تدل على عزوفه عني).. (إنها تشبه اجتماع غبى لبحث أمر عبثي).. أمرت خيالها وذاكرتها باستدرار أحداث هذه الليالى.. انها تبدأ دائماً

باعدام الضوء.. خلع الرداء فى كثير من الدقة.. وبعد عشر دقائق يوليها ظهره لينام.. لم تجد شيئاً ذى متعة يحملها على مزيد من التذكر فأغلقت ملف الألم.. أضاءت ضوء خافت بجانبها.. لاحظت ظهره العريض.. التفت إليها بوجه متساءل.. سارعته..

- أنا مرهقة.. سأبتلع قرص لأنام.

- هل أنت قلقة؟..

- لا عليك.. سآخذ حمام دافئ حالاً..

أزاحت غطاءها فى سرعة.. اتجهت إلى الحمام.. ارسلت الماء البارد عليها فى كل اتجاه.. كان بكائها هذه المرة لانها قد أدركت انه خائن.. لان هذا ما أقنعها..

أما هو.. فقد راقبها حتى باب الحمام بعينين ملهوفتين.. أدار وجهه إلى ما كان عليه.. هرب من جمالها القادم بعد قليل.. اعيته الحيل فى معرفة ما وصلا إليه.. اسلمه تفكيره إلى أنها لا تريده.. لانها متسلطة لا تعرف الحب.. لا تعرف الا لغة الأوامر.. انها لم تطلبه مرة واحدة.. وهو لن يظل يطلبها إلى الأبد فتعطيه ما يريد كأنها تجزل له العطاء.. ثم ما تلبث أن توليه ظهرها.. لن يتحمل هذه

المعاملة أكثر من ذلك.. انه ينهك فى عمله.. بعد ان يُخلص تهاجمه المعارضة وعندما يعود يجد المتعالية تقطر له الحياة نفسها فضلاً عن راحته معها.. بدأت كل الخيوط تفلت منه.. الارهاق فت فى عضده.. الملل زحف على روحه المعنوية.. بدأ يهمل اجتماعاته.. حتى الهامة منها.. جسده أخذ يتمرد عليه.. آلام رهيبة تعتصره فيتلوى باحثاً عن زوجته ليجد وجهها المتجمد.. قرر ان يبحث عن ضالته.. ليخمد الصوت الذى يقلقه..

فى هذه اللحظة.. هوى جسدها على السرير متنفسة الصعداء أخيراً اقتنعت بما يبعده عنها.. ارتخت ملامحها فقد قررت قراراً..

* * *

أمر السائق بأن يتوجه إلى منزل أحد الأصدقاء.. استقبله فى سعادة..

- منذ عدة شهور لم أرك.

- مشغول وحياتك مشغول..

كانت زيارته محددة الهدف.. ان صديقه رجل أعمال.. يعيش بعقلية غريبة.. فى الصباح يطحن المنافسين فى الأسواق.. وفى الليل مع الجميلات.. لطالما سأله عن عدم زواجه رغم ان الشعر الأبيض

بدأ يتوغل فى شعره.. ردوده كانت صريحة.. (إنه لم يعد يثق فى امرأة واحدة فى العالم)..

سقط كلامه كالصاعقة على أحلامه.. فقد خطى كل هذه المسافات ليتحدث مع صديقه عن المرأة.. سأله عن رغباتها.. شعورها تجاه الرجل.. علاقتها بالرجل وأسرارها.. ولكن اجاباته كانت عامة لم ترو ظمأه.. أدرك صديقه أن زيارته لها ذيل.. راوده على ذلك.. كرجل أعمال.. أدرك ان الصديق شديد الذكاء.. ولكن ماذا ينفع الذكاء فى هذه الحالة.. قرر ان يصل إلى هدفه..

- أريد الزواج..

قهقهه الصديق..

- ولكنك متزوج.. هذا ما أعرفه..

- أريد أن أتزوج فى السر.. فتكون الأولى للمجتمع والثانى لى..

- إذن.. أنت تعيس..

وكأن الكلمة فتحت الأبواب المغلقة..

- إننى لم أتزوج حتى الآن.. انه زواج صورى.. شكليات.. اجتماعى.. هل تعلم؟ حتى الآن لم ننجب.. لم نتفق حتى على

الذهاب إلى الطبيب.. كل منا يخاف ان يكون السبب فى عدم الانجاب..

عصر جبينه فى قلق.. احتار.. هل يكمل أم يتوقف؟

ولكن ضراوة صراعه لم تمكنه من التوقف.. وأخيراً وجد الانسان الذى يسمعه.. انه صديقه منذ سنوات طويلة.. وربما حالت ظروف الحياة بينهما ولكنهما.. أصدقاء.. استرسل..

- أريد أن أشعر أننى رجل مع امرأة.. اننى فى رعب.. لو خانتنى رجولتى أمامها لن أستطيع أن أعيش معها بعد ذلك انها تعاملنى كأنى تلميذ.. اننى لم أكن فى مركزها الاجتماعى ولكنى على أية حال.. لست عبيطاً.. غبياً.. أو أقل منها.. اتجه إلى صديقه فى لهفة.. (أريد امرأة كاملة)..

- اذن أنت.. فى أزمة.. ولكن.. هل لابد ان تتزوج..

أخذته المفاجأة.. رسم بملامحه السؤال.. رد الصديق فوراً..

- لو أن كل زوج غير سعيد تزوج امرأة ليسعد معها.. لتزوجت كل نساء الأرض.. صديقى العزيز.. النساء كلهن أمامك..

- ولكن مركزى الاجتماعى لا يسمح..

- ومن سيعلم المجتمع المزعوم؟.

- ان افتضاح الأمر سيكون نهايتى..

- صدقنى لن يفتضح شىء.. لانك لست الوحيد الذى يفعل ذلك انها ملايين يا عزيزى..

ازدادت حيرته.. انه لا يريد الخيانة.. انه يريد امرأة كاملة لا مجرد جسد.. حاول ان يصل إليه بأفكاره..

- إننى لا أريد جسداً..

قاطعه فى حدة..

- اسمعنى.. ان مشكلتك جنسية بحتة..

كان يحاول تفادى هذه الجملة بقدر الامكان.. اعدل عويناته.. ثبتها جيداً على عينيه.. حملق فى صديقه.. تساءل.. هل هكذا يراه الصديق؟ رجل محروم جنسيا(؟!!).. ارتطمت الكلمة بكل مبادئه وآرائه.. انه يعلم ان مشكلته ليست فقط جسديه.. انه يريد الزواج ولا يريد الليالى الحمراء.. ولكن الصديق لم يمهله التفكير..

- انك مسكين يا عزيزى.. لماذا لا تصارح نفسك بالحقيقة؟ إنك فى حاجة إلى المرأة التى تعيدك إلى رجولتك وثقتك بنفسك.. تجدد

رغبتك.. انت تريد انثى قبل أى شىء..

- ليست هذه حقيقة؟

- لا.. هذه هى الحقيقة.. وكثيرون ينكرونها.. وانت منهم.. ثم لماذا لا تجرب.. مرة واحدة فقط.. بعدها.. بعد أن تشعر بالراحة تدب فى أوصالك.. بعد ان تشعر بالثقة تروى صدرك.. ساعتها ستعلم ان الأجساد تحرك الشعوب.. أيها السياسى المحنك..

ضغطت عليه لياليه المحرومة.. خياله السبّاق إلى الشبق.. تساؤله.. هل محنته جسدية أم إنسانية؟.. كان لسؤاله الأخير الفزع الأكبر.. فقط اختلط عليه الأمر.. انه منذ نعومة أظافره يعرف كيف يحدد المشكلة ومن ثم يصدر القرار .. وهذا ما أهله إلى العمل العام.. انه الآن يتوه أمام تساؤل بسيط يدور فى أعماقه؟ (وما أصل مشكلتى؟).

سلمته لياليه الجافة.. حياته المجدبه إلى أيدى صديقه.. كان يسعى إلى الراحة بأى شكل.. باى تضحية.. أومأ برأسه علامة الموافقة.. تنفس الصديق الصعداء.. هتف..

- وإليك المفاجأة.. إنها موجودة..

- موجودة؟

- نعم.. قابلتها منذ أربعة أيام فى النادى.. انها ملكة جمال يا عزيزى..

- اننى لا أريد عاهرة تلوثنى..

- أيها المغفل.. وهل مثلى يتعامل مع عاهرة(؟!!).. انها من الطبقات الراقية...

- عذراء؟

- أيها الطماع.. لو كانت عذراء ما أهديتها إليك أبداً..

- متزوجة..

- لم تفصح لى عن أى شىء.. مهما كان.. كل ما أعرفه.. انها ليست عذراء.. هكذا قالت لى..

- وكيف وقعت؟

- لا تنس أننى شهير جداً.. كرجل..

- هذا يعنى ان كثيرات جئن إلى هنا..

- جداً..

- وهى.. جاءت؟

- اننى لم أرها الا منذ أربعة أيام.. وخضعت فى نصف ساعة..

- كيف؟..

- انها أسرارى..

- كيف؟

- لاننى أعرف أنك أمين سأقول لك.. لقد اخبرتنى صديقة بحالتها النفسية..

- وكيف عرفت الصديقة حالتها النفسية؟

- انها وجه جديد تماماً.. مجهول للجميع.. وفى جلسة واحدة مع صديقتى.. اعترفت بان زوجها مات منذ فترة وانها فى حالة يرثى لها.. وعلى الفور حولتنى صديقتى عليها.. اعطتنى أوصافها.. وفى دقائق كان الموضوع منتهى..

- وهل لى أن أخمن أنك تفعل نفس الشىء مع صديقتك صمت الصديق.. ولم يرد.. أكمل..

- ولكنك كرجل أعمال لا تضحى بالصفقة من أجلى..

- اعترف بأنى لم أفعلها من قبل.. ولكنى أريد ان اثبت لك نظريتى الخالدة.. العمل عمل.. فى مجال التجارة.. والحياة جنس.. متعة.. سأراك بعد ان تنال منها لأجدك شخصاً آخر.. وسيكون كل شىء على ما يرام.. كل شىء..

- ستعرض عليها الأمر؟..

- نعم..

- ولكن فى منتهى السرية..

- لا تخف.. هى أيضاً مرعوبة.. لان أسرتها معروفة..

- متى؟.

- دعنى أرتب الأمر معها ثم أتصل بك..

نهض وقد بدأ قلق جديد يسيطر عليه.. جاءت خطواته مترنحة.. مهزوزة.. طمأنه الصديق بأن كل شىء سيسير على ما يرام.. فاجأه سؤال قبل ان يخرج..

- هل أنا أول رجل بعد زوجها؟

أدرك الصديق أنه يمارس الأنانية.. حتى فى تنازله.. ولكن السؤال الصعب لم يكن له إجابة.. فرسم على وجهه إجابة تفيد (لا أعرف)..

* * *

انتظر أربعة ليالى كاملة دون رد.. أدرك أن صديقه طمع فى الجميلة فأخذها لنفسه.. لعن زوجته.. صديقه.. والجميلة.. أكله القلق.. هل سيستمر فى البحث عن امرأة بدلاً من المسجاة فى

غرفة نومهما.. أم لا؟.. وفى اى اتجاه؟.. ليس له سابق خبرة فى كل هذا.. بل هل سينفض الأمر كله عن كاهله ويعيش كما هو؟.. لم يستطع الاجابة بنعم هنا.. فقد دخلت المرأة إلى أحلامه.. وتطلع الى التجديد والراحة والافراج عن الرغبات حديثاً وفعلاً..

وعندما وصل إلى الارهاق الكامل.. دق جرس المسرة.. التقطه فى لهفه.. اطلق الصعداء.. كان الصديق.. وكانت الأخبار..

- الموعد بعد غد السابعة مساء.. فى منزل الصديق.. بالطبع لن يكون هو موجوداً .. سيكون كل الضوء خافت.. وشديد الخفوت فى حجرة النوم.. ستكون فى انتظاره.. على أهبة الاستعداد.. طمأنه.. انها لا تريد ان تعرفه.. ولا تريده ان يعرفها.. كل كلام عن استكشاف الآخر.. مرفوض..

نزلت كلماته برداً على صدره.. أخيراً وصل إلى كل شىء.. اعدم الضوء.. غاص فى كرسيه وقد ارسل خياله حيث اللامنتهى.. انه أخيراً سيجد راحته مع امرأة تريده تماماً كما يريدها.. لن يشعر معها الا كما يشعر الرجل كرجل مع امرأة كامرأة.. كسيد مع منتظرة.. اخيراً سيجد من تعطيه ما يريد ويعطيها ما تريد.. اخيراً وجد البديل عن

حبيبته المتعجرفة.. نعم.. أخيراً..

كان ينتظر ليلته مع الزوجة أسبوعياً على أحر من الجمر.. ولكن هذه الليلة انسكب الماء البارد على رغباته.. ففترت عيناه وضمدت نفسه.. اتجه ببطء وثقة الى حجرته.. كانت مستيقظة.. التقت عيناهما فى وجل.. حتى الاسبوع الماضى كان يتسلل إليها ولكن الآن لم يعد فى حاجة إليها.. لم يعد إلا احتمال يوم واحد فقط ليلتقى بالمرأة الجديدة..

تقدم فى ثقة.. بهرتها نظراته القوية.. جلس بجانبها حدجها بنظرة قوية..

- حبيبتى.. معذرة.. أنا مرهق الليلة.. سامحينى..

لقد قصد كل كلمة.. انه ينتقم باهمالها.. بازدرائها.. ليشعر لأول مرة انه يستطيع ان يعاملها بالمثل.. على ان يكون مقتنعاً هو بذلك.. ثم أراد صفعها بكلمة سامحينى ليعزز ذلك.. الا انها ردت..

- حبيبى.. هذا كنت ما سأطلبه منك تماماً.. فأنا أيضاً مرهقة.. ليكن الاسبوع القادم.. سامحنى..

* * *

فضل الصعود من خلال السلم تاركاً المصعد.. ازداد توتره.. انه الآن فى سبيله إلى تجربته الجديدة.. فك رباط العنق.. اخذ يقترب.. ها هو الباب.. اعمل المفتاح.. ولج إلى عالم خافت.. اغلق الباب فى حرص شديد.. ازاد غلقه بالمفتاح..

فأخذ يتجول ببصره حتى وقع على ضوء أحمر داكن قادم من بعيد.. دقت الساعة السابعة تماماً.. شعر انه ينبغى ان يظهر حتى لا يهينها.. نهبته الأسئلة فى العشرة أمتار.. ترى هل هى جميلة؟ هل ستعطيك ماتريد؟ هل ستنجح؟.. أهمل كل الأسئلة كما نصحه الصديق.. اتم تأكده من أن كل شىء خافت وان الضوء الأحمر الداكن لن يُظهر ملامحه.. فصوره من حين لآخر فى الصحافة..

وضع قدماه على اعتاب الحجرة.. رأى شبحاً أحمراً وقد أرخى رأسه على الوسادة فى ضعف رهيب.. بلع لعابه فى صعوبة.. تقدم أكثر.. كانت كما ولدتها أمها.. ازداد قلقه.. صَعُب الموقف.. نأى بنظره عنها.. لم يتحمل رؤيتها التى تغتاله تماماً حاول ان يتكلم.. تلعثم.. خرج صوتها.. فى صعوبة مختلط الحروف والأنفاس..

- لا تتكلم الآن..

اسقطت نفسها فى عمق السرير.. اطلقت زفيراً حاراً.. لم يتحمل.. خلع ملابسه.. كانت رغبته الجامحة فى أى يخترق جدار الظلام ليعرف ملامحها.. ليعرفها.. حاولت هى الأخرى ولكن المحاولة باءت بالفشل.. فقد أزاغت الرغبة البصر.. القى نفسه إليها فى يسر.. وكذلك هى.. لم يكن هناك نوعاً من الشذوذ أو العبث.. كان لقاءً.. يكاد يكون ساذجاً فاختلط عليه الأمر.. هل هى محترفة أم مجرد مبتدئة؟.. انسالت الكلمات من كليهما تعلن عن المصارحة فى الحياة والرغبة والحب.. تشكو من حرمان الآخر للآخر.. بكت من شدة سعادتها.. انها الآن تبيح عما يجيش فى صدرها دون خوف من اتهام بالشهوانية أو السقوط من زوجها.. نعم.. كانت الكلمات تخرج مهلهلة التراكيب.. ولكن معانيها واضحة.. زاحمت الأنفاس الألفاظ ولكن كل منهما غالب دموعه وتحدث فى لوعة عن الحرمان بكل مستوياته.. حتى بعد ان انتهى ما يريداه.. استمرا فى حضنهما وقد بللت دموعها صدره.. حاول ان يستدرجها ليعرفها ولكنها بكلمات بسيطة قاطعة حسمت الموضوع.. ادركا ان الوقت قد أزف ولكن رغبة جامحة جمعتهما فى حضن دافئ..

مجرد حضن دافئ.. فى نهاية هذا الحضن قرر أن يعرفها.. مهما كان الثمن.. علم أنها أيضاً ستعرفه.. ما لم يكن الآن فبعد أن تلقاه على صفحة جريدة.. لقدداهمته العاطفة.. هذاما يريده.. ليسقط صديقه العبثى.. انه لا يريد جسداً ينهشه.. انه يريد هذا الصوت الجميل الذى يتقطر عطفا وأنوثة.. انه يريد هذا الحضن الدافئ الضعيف.. هذه ضالته.. سيعرفها.. لعلها تكون فى يوم من الأيام له.. ربما يكون فى معرفتها أمل فى أن يرتبط بها فلا تكون مجرد عاهرة.. أدخلته حلماً.. سيظل حبيسه طوال العمر..

صارحها بذلك..

- لابد أن أعرفك مهما حدث..

قاومته بكل الطرق.. رماها إلى السرير رغما عنه.. إنقض على الضوء.. أرسله.. ابتلعهما الضوء.. صعقتهما المفاجأة.. هتف فى ضياع..

- زوجتي(؟!!)..

مرت دقائق أو ساعات.. لا يعرف أحدهما كم من الوقت مر.. لقد تجمدا.. صعقتهما الحقيقة.. وضعتهما فى مواجهة قاسية.. كان العقلان يعملان بسرعة الصاروخ.. الاتهامات تتلى من كل حدب

وصوب.. ولا مرافعة واحدة..

كانا عاريين.. وربما كانت تلك هى النقطة العنيفة من الحقيقة.. كانا متلامسين.. كرجل وامرأة.. كلاهما سعى إلى الخيانة.. أدركا كل شىء..

علم أن زوجته تخونه.. ولكن لا يعلم منذ متى تخونه وأدرك انه أيضاً خائن.. مهما كات الأعذار..

إنه الرجل السياسى الجامعى الوقور.. الذى حاز على ثقة الكثيرين.. ها هو فى النهاية.. يُطرح أمام نفسه وزوجه.. عارياً.. مجرداً من أى شىء يمكن ان يقوله أو يبرر به فعلته.. انهار كبريائه الذى مارسه مع زوجته طوال السنوات الماضية.. ليتحول فى النهاية.. إلى رجل خائن..

أما هى.. فقد كانت دموعها بلا نهاية.. فقدت كل شىء.. لم تدرك انها راحت ضحية تبادل مصالح بين صديقه حكت لها قصة وهمية لتشور عليها بما تفعل فى لب مشكلتها وهى التعاسة الزوجية.. وبين رجل أعمال باعها إلى رجل آخر ليكون هذا الآخر.. زوجها(؟!!)..

أدركت سلسلة الخيانات.. والتفاهات والوضاعة.. انهارت نظرتها المتعالية.. الارستقراطية..

ولكن الشيء الذى سحقها انها لن تستطيع أن تثبت له أنها أول مرة تقرر فيها الخيانة.. انها لم تلمس رجلاً آخر غيره حتى الآن.. حتى فى خيانتها له(؟!!)..

لم يعرفا شيئاً يفعلاه.. لا فائدة من الدفاع عن النفس.. فكلاهما ذكى ويستطيع ان يخمن ماذا حدث؟.. كلاهما اراد الراحة عن الآخر وعن طريق آخر فيضعهما القدر أمام بعضهما البعض.. كلاهما عاش فى جزيرة منفصلة تتباعد كل يوم وكان موعد الالتقاء موعد العذاب.. ليته كان وقت عتاب.. وليته كان وقت يمكن ان يقول أحدهما (لنبدأ من جديد).. لقد عاشا معاً سنوات حرمان كئيبة وليلة كهذه كانت قادرة على ان تحيل العذاب الى سعادة والحرمان الى ارتواء.. ولكن احد منهما لم يستطع كسر حاجز الصمت وجدار الكبرياء.. تمنيا أن لو تجردا من تقارير العمل.. ومن رداء الارستقراطية ليكونا قبل اى شيء.. رجل وامرأة فى كيان واحد.. لقد تذوقا أخيراً كيف يمكن ان يكونا رجلاً وامرأة فى كيان واحد.. كم سعدا بذلك.. بحياة شفافة تحت قطرات المطر.. بسيطة بساطة الحب.. جميلة.. جمال السعادة.. دافئة.. دفء الأحضان

ولكنهما دفعا الثمن على سرير الخيانة.. كم يودان ان يرجعا إلى بيت الزوجية.. يعيشان أسعد حياة.. بلا حائط من زيف.. بلا حياة موظفين أو متعالين.. ولكن بأى جسد سيذهبان؟ وبأى وجه سيذهبان؟.. لن يستطيعا أن يعيشا ذكر وانثى فى المساء ومتفارقين فى الصباح.. لن تجرؤ العيون على الالتقاء.. لن تصدق انه لا يخون وانه اذا تأخر لم يكن فى أحضان أخرى..

ولن يصدق انها إذا خرجت من المنزل لن تسقط فى حضن رجل آخر.. بل إن السؤال الذى يطحنه.. كيف لم يعرف انها هى التى فى أحضانه؟.. هل كانا إلى هذه الدرجة من التباعد وهما تحت سقف واحد؟.. بل هل كانت لقاءاته معها تقربهما أم تباعدهما(؟!!)..

صرخ فى جنون.. اللعنة على الصديق.. اللعنة على كل شىء.. انه لن يستطيع ان يبنى زواجه على ساعة من ليل.. فليس هذا كل شىء.. انه يريد ان يحتضن الكبرياء والعفة والاحترام.. مع الجسد والدفء.. بحث عن عويناته فى إحدى الأركان.. جذبها إلى صدره.. حدّق بها جيداً كأنه لم يرها من قبل.. ذابت فى ملامحه.. ضغط على جسدها الناعم..

- الآن.. وهنا(؟!!).. أقول لك.. أحبك.. ومنذ أن رأيتك.. ولكنه كلام بلا قيمة.. الآن..

- وأنا أيضاً.. (صرخت.. وبكت).. وأنا أيضاً.. أنا أيضاً..

قبلها فى عنف.. انفصلا.. ارتدا ملابسهما فى بطء.. كانت نظرته تعنى شيئاً هاماً.. ان الطلاق قد أصبح قاب قوسين أو أدنى..

تشابكت الأصابع فى شغف.. اكتسح الحزن والغيظ ملامحهما.. أعدما الضوء.. خرجا.. أصر على أن يذهبا سيراً على الأقدام رغم المطر.. اكتسحه شعور بالسعادة.. فهو يسير تحت المطر.. هذه رغبته منذ زمن طويل.. وها هو يفعلها..

* * *

الفهرس

(1) بائع البليلة 5

(2) العملاق 42

(3) القـــرار 55

(4) ثلاث قلوب.. وطريق واحدة 62

(5) منـــــال 80

(6) (معذرة يا زوجى العزيز) 111

(7) وداد.. والمجهول 126

(8) تحت المطر 150